

مَكْتَبَةُ ابْنِ قَيْنَبَرٍ

أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمٍ بْنِ قَيْنَبَةَ

٢٩٣ - ٢٧٦ هـ

نَوَافِلُ مُشْكَلِ الْقُرْآنِ

مُخَفِّفٌ

السَّيِّدِ أَحْمَدَ صَفَرٍ

مَكْتَبَةُ دَارِ التَّرَاثِ

٢٩ شارع الجمهورية - القاهرة

مَكْتَبَةُ ابْنِ قُتَيْبَةَ

أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْلِمٍ بْنِ قُتَيْبَةَ

٢١٣-٢٢٦ هـ

نَوَافِلُ مَشْكَلِ الْقُرْآنِ

شرح وشرحه

السَّيِّدُ أَحْمَدُ صَيْفِي

الطبعة الثانية

١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

دَارُ الْبَيِّنَاتِ

ص.ب. ١١٨٥ - القاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَمَدَّة

أكبرت ابن قتيبة منذ أن قرأت له في فجر الشباب ، وصبت نفسي إلى كتبه ، فتطلبتها ، وحرصت على دراستها بعزيمة قوية ، وهمة فنية ، ونفس مشوقة ، وحس جميع . وكنت كلما أمعنت في قراءتها ، وأدمنت النظر فيها تجلت لي عظمتها ، وظهرت قيمتها ، وتبينت دقائقها ، وتهديت إلى مراميها ؛ واستبان لي من نضرة طلاوتها ، ورفافة مائيتها ؛ ورصانة أسلوبها ، وجمال عرضها ، وحسن تنسيقها وتبويبها - ما يزيدني إعجاباً بها ، وإعظاماً لمؤلفها .

ثم تعاقبت الأعوام ، وتنوعت القراءات ، وتغيرت القيم ، وتبدلت الأنظار ؛ وظل إعجابي بابن قتيبة وكتبه مكيناً ركيناً ، بل ازداد تأصلاً وتمسكاً ؛ بما ازددت من معرفة به ، وبصر بكتبه .

وابن قتيبة خليف بالإعجاب ، جدير بالإعظام ؛ فقد أخلص نفسه وفكره وعقله لدينه ولغته ، وقضى حياته مجاهداً في سبيل إعزازها ، والتمكين لها في نفوس شباب الإسلام ، ودرء شبه أعداء الدين والعربية والعرب ، بما ألف من كتب ، ودرس من دروس . لا يبتغى بذلك طلب المئالة بين الناس ، أو المئالة منهم ، أو الجاه عندهم . بل ابتغى بما عمل وجه الله ، وتحقيق المثل العظيم

الذى رسمه لنفسه منذ أن عقل أمرها ؛ وهو الجهاد الدائب فى سبيل الدين
واللغة ، حتى قضى نحبه رضى النفس ، مذكوراً بلسان الصدق فى الآخرين .

وقد أثناه الله على إخلاصه ، بما أفاض على كتبه من القبول ، وعطف
نحوها من القلوب والعقول . فليست ترى أديباً أو متأديباً قرأ من كتبه ، إلا
وهو يحس نحوها بالمودة ، ونحوه بالتقدير .

وقد دفعنى إعجابى بابن قتيبة ، وعرفانى بقدر كتبه : أن أنشر ما بقى
منها ، نشرأ قويمًا ، يسهل سبل الانتفاع بها ، ويظهر القراء على ما فيها من
روائع العلوم ، وبدائع الآداب والفنون .

والحق أن كتب ابن قتيبة دائرة معارف شاملة ، تمثل أرقى ما وصل
إليه الفكر الإسلامى ، فى القرن الثالث الهجرى . ومن ثم فهى خليفة
بالدرس ، جديرة بالنشر .

وابن قتيبة : من أسرة فارسية ، كانت تقطن مدينة « مرو » ولنا
نعرف عن نسبه أكثر من أنه : « عبد الله بن مسلم بن قتيبة بن مسلم
للروزى » .

وقد ولد فى سنة ٢١٣ ، فى أواخر خلافة المأمون .

وقد اختلف المؤرخون له فى تعيين المدينة التى ولد بها ، فقال السمعاني ،
والقفطى : إنه ولد ببغداد . وقال ابن النديم ، وابن الأثير ، وابن الأثير :
إنه ولد بالكوفة .

وقد اتفقوا على أنه نشأ ببغداد التي كانت تموج حينئذ بأعلام العلماء في كل فن ، وتهوى إليها أفئدة المثقفين والتعلمين من كل أنحاء الدولة الإسلامية .

وقد كان ابن قتيبة - منذ شبابه الباكر - ذا نفس طُلعة ، تواقه إلى المعرفة ، دفعته إلى أن يتعلق من كل علم بسبب ، وأن يضرب فيه بسهم . وقد اقتضاه ذلك أن يفشى مجالس علماء الحديث والتفسير والفقه والنحو واللغة والكلام والأدب والتاريخ ؛ ففشى من مجالسهم ما غشى ، وتقف عنهم ما تفت ؛ مما مكن له من أسباب القوة ، وهياً من وسائل التفوق والتبريز .

وقد تتلمذ ابن قتيبة لطائفة من أعلام عصره ، وروى عن جمع من مشاهير دهره ، وأخذ عن كثير من أعيانه وأماثله . نذكر منهم ما يلي :

١ - والده « مسلم بن قتيبة » . وقد أشار إلى ذلك في عيون الأحبار ٣/٣٠٧ ، ١/١٤٢ حيث يقول : « حدثني أبي ، عن أبي العتاهية » و « حدثني أبي ، أحسبه عن الهيثم بن عدي » .

٢ - أحمد بن سعيد اللحياني ، صاحب أبي عبيد : القاسم بن سلام ، وقد حدثه اللحياني بكتاب الأموال ، وكتاب غريب الحديث لأبي عبيد ، في سنة ٢٣١ . وكان عمر ابن قتيبة - إذ ذاك - ثمانية عشر عاماً .

٣ - أبو عبد الله : محمد بن سلام الجعفي البصري ، صاحب طبقات الشعراء (١٣٩ - ٢٣١) .

٤ — أبو يعقوب: إسحاق بن إبراهيم ، المعروف بابن راهويه (١٦١ - ٢٣٨) . وهو إمام جليل في الفقه والحديث . صاحب الشافعي وناظره ، وروى عنه البخاري ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، والنسائي ، وأحمد بن حنبل الذي قال عنه : « لا أعرف لإسحاق بالعراق نظيراً » .

٥ — حرمة بن يحيى التجيبي ، صاحب الشافعي (١٦٦ - ٢٤٣) .

٦ — القاضي يحيى بن أكثم ، المتوفى سنة ٢٤٢ . وقد أخذ ابن قتيبة عنه بمكة .

٧ — أبو عبد الله: الحسين بن الحسين بن حرب السلمي المروزي ، المتوفى سنة ٢٤٦ .

٨ — دعلج بن علي الخزاعي الشاعر (١٤٨ - ٢٤٦) .

٩ — أبو عبد الله: محمد بن محمد بن مرزوق بن بكير بن البهلول الباهلي البصري المتوفى سنة ٢٤٨ .

١٠ — أبو إسحاق إبراهيم بن سفيان الزياتي ، تلميذ سيبويه ، والأصمعي ، وأبي عبيدة ؛ المتوفى سنة ٢٤٩ .

١١ — أبو حاتم : سهل بن محمد السجستاني ، المتوفى سنة ٢٤٨ أو ٢٥٠ ، أو ٥٥ .

قال الأزهري في مقدمة التهذيب ص ١١ : « وكان أبو حاتم السجستاني أحد المتقدمين ، جالس الأصمعي ، وأبا زيد ، وأبا عبيدة . وله

مؤلفات حسان ، وكتاب في قراءة القرآن جامع ... وقد جالسه شمر ،
وعبد الله بن مسلم بن قتيبة ؛ ووثقه .

١٢ — محمد بن زياد بن عميد الله بن زياد بن الربيع الزبدي البصري ،
الملقب ببؤيؤ ، المتوفى سنة ٢٥٢ .

١٣ — أبو يعقوب : إسحاق بن إبراهيم بن محمد الصواف الباهلي
البصري ، المتوفى سنة ٢٥٣ .

١٤ — أبو عبد الله : محمد بن يحيى بن أبي حزم القطمعي البصري ، المتوفى
سنة ٢٥٣ .

١٥ — أبو الخطاب : زياد بن يحيى بن زياد الحساني البصري ، المتوفى
سنة ٢٥٤ .

١٦ — شبابة بن سوار ، المتوفى سنة ٢٥٤ .

١٧ — أبو عثمان الجاحظ ، المتوفى سنة ٢٥٤ . وقد أجاز ابن قتيبة
ببعض كتبه ، كما صرح به ابن قتيبة في عيون الأخبار ، حيث يقول ١٩٩/٣
و ٢١٦ و ٢٤٩ : « وفيما أجاز لنا عمرو بن بحر : من كتبه ؛ قال ... » .

١٨ — أبو يعقوب : إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد البصري ،
المتوفى سنة ٢٥٧ .

١٩ — أبو طالب زيد بن أخزم الطائي البصري ، الذي قتله الزنج
في سنة ٢٥٧ .

٢٠ — أبو الفضل: العباس بن الفرّج الرياشي ، تلميذ الأصمعي ؛ الذي قتله الزنج بالبصرة وهو قائم يصلي في مسجده ، سنة ٢٥٧ .

٢١ — أبوسهل الصفّار: عبدة بن عبد الله الخراعي الكوفي ، نزيل البصرة ، المتوفى سنة ٢٥٨ .

٢٢ — عبد الرحمن بن بشر بن الحكم بن حبيب بن مهران العبدي ، المتوفى سنة ٢٦٠ .

٢٣ — أبو بكر: محمد بن خالد بن خدّاش بن عجلان المهابي البصري الضريّر .

٢٤ — أبو سعيد: أحمد بن خالد الضريّر قال أبو منصور الأزهري عنه في مقدمة التهذيب ص ١١ : « وكان طاهر بن عبد الله استقدمه من بغداد ، فأقام بنيسابور ، وأملى بها كتباً في معاني الشعر والنوادر . وردّ على أبي عبيد حروفاً كثيرة من كتاب غريب الحديث . وكان لقي ابن الأعرابي ، وأبا عمرو الشيباني ، وحفظ عن الأعراب نكتاً كثيرة . وقدم عليه القتيبي : فأخذ عنه . »

٢٥ — عبد الرحمن بن عبد الله بن قريب ابن أخي الأصمعي ، الذي عدّه الزبيدي في الطبقة الخامسة من اللغويين البصريين .

* * *

أخذ ابن قتيبة عن هؤلاء الأعلام ، كما أخذ عن غيرهم من أعرب عن أمثالهم ، ومن أبهمها واكتفى بأن يقول : « حدثنا بمض مشايخنا » أو نحو

ذلك . كما أخذ عن الكتب المسووعة وغير المسووعة من كتب العرب والعجم .
وهذه ينابيع ثقافته الغزيرة ، ومناهل معارفه الجمة .

وليس يكفي أن يكون الإنسان جم المعرفة ، غزير الثقافة ، ليكون مؤلفاً ممتازاً بل لابد له - مع ذلك - من طبيعة مواتية ، وفكر مرتب ، وعقل مركز ، وذوق مصفى ، وذهن ناقد ، وبيان ساحر ، وحافز نفسى غلاب . وكل ذلك قد توافر لابن قتيبة ، وتهياً له ؛ فمكّنه من أن يؤلف كتباً عظيمة : امتازت بالأصالة والجدة ، والطرافة والدقة ، وحسن الترتيب والتنظيم . وكانت لوناً جديداً خلا من شوائب الاستطراد والتخليط ومساوى التأليف والتصنيف .

* * *

صنف ابن قتيبة مصنفات كثيرة ، بلغت عدتها - فيما يقول أبو العلاء المعري - : خمسة وستين مصنفًا ، نذكر من أنبأها ، ما علمناه ، فيما يلي :

(١) كتاب الوزراء :

لم يذكره أحد ممن ترجم له ، وقد ذكره ابن منظور في لسان العرب ١٤٣/١٣ ، إذ يقول : « والعرب تسمى من يعمل جفون السيف خلّالاً . وفي كتاب الوزراء لابن قتيبة في ترجمة أبي سلمة : حفص بن سليمان الخلال في الاختلاف في نسبه ، فروى عن ابن الأعرابي أنه منسوب إلى خلل السيوف من ذلك » .

(٢) كتاب آلة الكتاب :

لم يذكر كذلك في ترجمته ، وقد ذكره ابن السَّيِّد البطليوسي في الاقتضاب حيث يقول ص ٨٧ : « ويقال للشحمة التي تحت برية القلم : الضرة ، شبهت بضرة الإبهام ، وهي اللحمية في أصلها كذا قال ابن قتيبة في « آلة الكتاب » وهو المعروف ، وخالف ذلك في « أدب الكتاب » فقال : الألية : اللحمية التي في أصل الإبهام ، والضرة : اللحمية التي تقابلها » وفي ص ٨٨ : « وقال أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة في كتاب : آلة الكتاب ... » وفي ص ٥٩ : « وقد ذكر ابن قتيبة هذا الكلام في آلة الكتاب وغير ذلك من كتبه » وكذلك ذكره في ص ٨٤ .

(٣) كتاب صناعة الكتابة :

وهو غير معروف كسابقه ، ولكن نقل منه الخزاعي في كتابه « تخريج الدلالات السمعية » ص ٣٥٨ عند كلامه على كلمة ديوان وأن جمعها دواوين ودياوين : « وقال ابن قتيبة في صناعة الكتابة : وإنما جمعوه بالياء على لفظة . قال : وداله بالكسر ولا تفتح » .

ومما يوثق صحة هذا النقل من صناعة الكتابة ، وأنه كتاب غير أدب الكتاب - أن الخزاعي ذكر في الباب الرابع من كتابه ، وهو الذي عقده لذكر أسماء التواليف التي خرج منها كتابه - في كتب اللغة « أدب الكتاب لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة » ، وفي كتب الأدب : « عيون الأخبار لابن قتيبة والمعارف له . . . وصناعة الكتابة لأبي جعفر أحمد ابن محمد بن النحاس ، وصناعة الكتابة لابن قتيبة » .

(٤) كتاب الوحش :

ذكره ابن قتيبة في « الأنواء » ص ٤١ حيث يقول : « قال ابن مضر بن الأسدي :

ويوم من الشعر كان ظباءه كواكب مقصور عليها صقورها
يريد أنها قد كنت . وقد ذكرت هذا في كتاب « الوحش » بأكثر
من هذا الشرح » .

(٥) كتاب الصيام :

ذكره أيضاً في الأنواء ص ١١٨ حيث يقول : « وبتعرف من المنازل
بأن الهلال إذا طلع في أول ليلة من شعبان في « الشرطين » فإن كان شعبان
تاماً طلع في أول ليلة من شهر رمضان في « الثريا » وإن كان شعبان ناقصاً
طلع في « البطين » وهذا أمر يضيق ويصعب على الناس ، ويكثر فيه التنازع
والاختلاف ؛ فسنسخه رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، بقوله : إذا غم عليكم فأكملوا
العدة ثلاثين . وقد ذكرت مثل هذا في الكتاب الذي ألفته في الصيام » .

(٦) كتاب غريب الحديث :

وكان إلى منتصف القرن الرابع ، بعد ثلثي اثنين ذهباً بإعجاب العلماء
وتقديرهم في هذا الفن .

قل أبو سليمان الخطابي في مقدمة كتاب غريب الحديث : « فكان أول
من سبق إليه ، ودل عليه أبو عبيد : القاسم بن سلام ؛ فإنه قد انتظم عامة
ما يحتاج إلى تفسيره من مشاهير غريب الحديث ، فصار كتابه إماماً لأهل

الحديث ، به يتذاكرون ، وإليه يتحاكمون . ثم انتهج نهجه أبو محمد : عبد الله ابن مسلم بن قتيبة ، فتدعي ما أغفله أبو عبيد من ذلك ، وألف فيه كتاباً لم يأل أن يبلغ به شأو المبرز السابق .

ولم يودعه شيئاً من الأحاديث المودعة في كتاب أبي عبيد إلا مادعت إليه حاجة من زيادة شرح وبيان ، أو استدراك أو اعتراض . فجاء مثل كتاب أبي عبيد أو أكبر منه .

وقد قال ابن قتيبة في مقدمته : « وكنت زماناً أرى أن كتاب أبي عبيد قد جمع تفسير غريب الحديث ، وأن الناظر فيه مستغن به . ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة ، فوجدت ما ترك نحواً مما ذكر ؛ فتدعي ما أغفل ، وفسرته على نحو ما فسر . وأرجو ألا يكون بقي بعد هذين الكتابين من غريب الحديث ما يكون لأحد فيه مقال . »

ثم قال الخطابي بعد أن ذكر جماعة من مصنفي الغريب وأثنى عليهم : « ثم إنه ليس لواحد من هذه الكتب التي ذكرناها ، أن يكون شيء منها على منهاج أبي عبيد في بيان اللفظ ، وصحة المعنى ، وجودة الاستنباط ، وكثرة الفقه . ولا أن يكون من جنس كتاب ابن قتيبة في إشباع التفسير ، وإيراد الحجج ، وذكر النظائر ، وتخليص المعاني . »

ولم يبق من غريب الحديث إلا الثلث الأول والثلث الأخير ، في الخزائنة الظاهرية بدمشق برقمي ٣٤ ، ٣٥ - لغة .

وقد ذكره ابن قتيبة في كتاب أدب الكاتب ص ٧٠ وكتاب عيون

الأخبار ٢/٢٤٤ ، ٩/٤ وكتاب الأشربة ص ١٠٩ وكتاب تأويل مختلف الحديث ص ١٤ ، ٢١١ ، ٢٦٨ وكتاب المسائل ص ١٥ وكتاب الشعر والشعراء ٢/٦٨٤ وتأويل مشكل القرآن ص ٢٨ ، ٥٨ ، ٩٩ ، ٢٠٥ .

وقد ألف الحسن بن عبد الله الأصبهاني ، المعروف بلفدة ، كتاباً في نقده أسماء « الرد على ابن قتيبة في غريب الحديث » .

(٧) إصلاح الغلط في غريب الحديث لأبي عبيد .

استدرك ابن قتيبة فيه على أبي عبيد في نيف وخسين موضعاً ، وهذا الكتاب - فيما أرى - من أهم كتب ابن قتيبة وأعظمها أثراً في تاريخه ، فقد تعاظم كثير من العلماء - في عصره وبعد عصره - أن يعرض مثله بالنقد لأبي عبيد .

وترجع قيمته كذلك ، إلى أنه من بواكير كتب النقد العلمي .

وقد قدم له بمقدمة رائعة ، مليئة بالمعاني والأفكار ، وبدأها بدءاً ظريفاً إذ يقول : « لعل ناظراً في كتابنا هذا ينفر من عنوانه ، ويستوحش من ترجمته ، ويربأ بأبي عبيد ، رحمه الله ، عن الهفوة ، ويأبى له الزلة ، ويتحشم قصب العلماء ، وهتك أستارهم . ولا يعلم ما تقلدناه من إكمال ما ابتدأ : من تفسير غريب الحديث ، وتشديد ما أسس ، وأن ذاك هو الذي ألزمتنا إصلاح الفساد ، وسد الخلل . على أننا لم قل في ذلك الغلط : إنه اشتغال على ضلالة ، أو زيف عن سنة . وإنا هو في رأى قضى به على معنى مستتر ، أو حرف غريب مشكل .

وقد يتعثر في الرأي جِلَّةُ أهل النظر والعلماء المبرزون ، والخائفون لله الخاشعون ؛ فهؤلاء صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم - وهم قادة الأنام ، ومعادن العلم ، وينابيع الحكمة ، وأولى البشر بكل فضيلة ، وأقربهم من التوفيق والعصمة - ليس منهم أحد قال برأيه في الفقه إلا وفي قوله ما يأخذ به قوم ، وفيه ما يرغب عنه آخرون ... وكذلك التابعون ... والناس يختلفون في الفقه ، ويرد بعضهم على بعض في الحلال أنه حرام ، وفي الحرام أنه حلال وهذا طريق النجاة أو الهلكة ؛ لا كالغريب والنحو والمعانى التي ليس على الهافي فيها كبير جناح ؛ كالشافعي يرد على الثوري ، وأصحاب الرأي ، وعلى معمله مالك بن أنس .

وأبو عبيد يختار من أقاويل السلف في الفقه ، ومن قراءتهم ، ويرذل منها ، ويدل على عورات بعضها بالحجج البينة .

وعلماء اللغة أيضاً يختلفون ، وينبه بعضهم على زلل بعض . والقراء يرد على إمامه الكسائي ، وهشام يرد على الفراء ، والأصمعي يخطئ المفضل ... وهذا أكبر من أن يحاط به ، أو يوقف من ورائه .

ولا نعلم أن الله عز وجل أعطى أحداً من البشر موتقاً من الغلط ، وأماناً من الخطأ ، فنستكشف له منها ، بل وصل عباده بالمعجز ، وقرنهم بالحاجة ، ووصفهم بالضعف والعجلة ، فقال : ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾ و﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ ، ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ .

ولا نعلمه خص بالعلم قوماً دون قوم ، ولا وقفه على زمن دون زمن ، بل جعله مشتركاً مقسوماً بين عباده ، يفتح للآخر منه ما أغلقه عن الأول ، وينبه القل منه على ما أغفل عنه الكثير ويحييه بمتأخر يتعقب قول متقدم ، وتال يعتبر على ماض .

وأوجب على كل من علم شيئاً من الحق أن يظهره وينشره ، ويجعل ذلك زكاة العلم ، كما جعل الصدقة زكاة المال . وقد قيل : اتقوا زلة العالم ؛ وزلة العالم لا تعرف حتى تكشف ، وإن لم تعرف هلك بها المقلدون ؛ لأنهم يتلقونها من العالم بالقبول ، ولا يرجعون إلا بالإظهار لها ، وإقامة الدلائل عليها ، وإحضار البراهين .

وقد يظن من لا يعلم من الناس ، ولا يضع الأمور مواضعها أن هذا اغتياب للعلماء ، وطعن على السلف ، وذكر للموتى ؛ وكان يقال : اعف عن ذى قبر . وليس ذلك كما ظنوا ؛ لأن الغيبة سب الناس بلثيم الأخلاق ، وذكرهم بالفواحش والشائعات . وهذا هو الأمر العظيم المشبه بأكل اللحوم الميتة . فأما هفوة في حرف ، أو زلة في معنى ، أو إغفال ، أو وهم أو نسيان - فعاذ الله أن يكون هذا من ذلك الباب ، أو أن يكون له مشاكلا أو مقاربا ، أو يكون انبذه عليه آتما ؛ بل يكون مأجوراً عند الله ، مشكوراً عند عباده الصالحين ، الذين لا يميل بهم هوى ، ولا تدخلهم عصبية . ولا يجمعهم على الباطل تحزب . ولا يلفتهم عن استبانة الحق حسد . وقد كنا زماناً نعتذر من الجهل . فقد صرنا الآن نحتاج إلى الاعتذار من العلم ؛ وكنا نؤمل شكر الناس بالتنبيه والدلالة فصرنا نرضى بالسلامة . وليس هذا بمجيب مع انقلاب الأحوال . ولا ينكر مع تغير الزمان ؛ وفي الله خاف . وهو المستعان .

ونذكر الأحاديث التي خالفنا الشيخ أبا عبيد ، رحمه الله ، في تفسيرها . على قلبها في جنب صوابه . وشكرنا ما نفعنا الله به من علمه ؛ معتمدين في ذلك بأمرين ، أحدهما : ما أوجبه الله على من علم في علمه . والآخر : ألا يقف

ناظر في كتبنا على حرف خالفناه فيه ، فيقتضى علينا بالفاظ . ونحن من ذلك ،
إن شاء الله سالمون . وما أولاك - رحلك الله - بتدبير ما نقول ، فإن كان
حقا ، وكنت لله مريداً - أن تتلقاه بقلب سليم . وإن كان باطلا ، أو كان فيه
شيء ذهب عنا - أن تردنا عنه بالاحتجاج والبرهان ، فإن ذلك أبلغ في النصرة ،
وأوجب للمعذر ، وأشفى للقلوب » .

(٨) تفسير غريب القرآن :

وهو في حقيقة أمره مقيم لمشكل القرآن . وقد قال ابن قتيبة في المشكل
ص ٢٥ : « وأفردت للغريب كتاباً كيلا يطول هذا الكتاب » .

وقال في مقدمة الغريب : « نفتتح كتابنا هذا بذكر أسمائه الحسنى .
وصفاته العلى ؛ فنخبر بتأويلهما واشتقاقهما . ونتبع ذلك ألفاظا كثر ترددها
في الكتاب لم تر بعض السور أولى بها من بعض . ثم نبتدى في تفسير غريب
القرآن دون تأويل مشكله ؛ إذ كنا قد أفردنا للمشكل كتاباً جامعاً كافياً
بحمد الله . وغرضنا الذي امتثلناه في كتابنا هذا أن نختصر ونكمل ، وأن
نوضح ونجمل ؛ وألا نستشهد على اللفظ المبطل ، ولانكثر الدلالة على الحرف
المستعمل ، وألا نحشو كتابنا بالنحو والحديث والأسانيد فإننا لو فعلنا ذلك
في نقل الحديث : لاحتجنا أن نأتى بتفسير السلف ، رحمة الله عليهم ، ولو أننا
بتلك الألفاظ كان كتابنا كسائر الكتب التي ألفها نقلة الحديث ... » .

ثم ذكر أنه لم يذكر اختلاف العلماء ، ولم يتم الدلائل على المختار منها .
لأنه لو تكلف ذلك لأسهب في القول ، وأطال الكتاب ، وقطع منه طمع
المتحفظ ، وباعده من بغية المتأدب .

ثم ذكر أن كتابه هذا مستنبط من كتب المفسرين ، وكتب أصحاب اللغة العالمين . لم يخرج فيه عن مذاعبهم . ولم يتكلف في الحروف التي ذكرها إلا اختيار أولى الأقاويل في اللغة ، وأشبهها بتمصة الآية . وبين أنه نبذ منكر التأويل ، ومنحول التفسير . ثم سرد نماذج مختلفة من هذا المنكر والمنحول . وقال على إثره : « والله نستمع ، وإياه نسأل التوفيق للصواب » .

(٩) كتاب الأنواء :

ذكرة ابن قتيبة في كتاب المعاني ١/٣٧٥ ، ٧٣٨ .

وقال في مقدمته :

« هذا كتاب أخبرت فيه بمذاهب العرب في علم النجوم : مطالعها ومساقطها ، وصفاتها وصورها ، وأسماء منازل القمر منها وأنوائها ، وفرق ما بين يمانها وشامها ، والأزمنة وفصولها ، والأمطار وأوقاتها . واختلاف أسمائها في الفصول ، وأوقات التبدل تتبع مساقط الفيث ، وارتداد الكلا . وأوقات حضور المياه . وما أودعته العرب أسجاءها في طلوع كل نجم : من الدلالات على الحوادث عند طلوعه . وعن الرياح وأفعالها . وتحديد مهابها . وأوقات بوارحها . وعن الفلك والقطب والمجرة والبروج والنجوم . وألحس . والشمس والقمر ودَرَارِي الكواكب ومشاهرها . والاهتداء بها . وعن السحاب ومخائله ، ماطره ومُخْلِفِه ، والبروق : خُلْبَها وصادقها ؛ وأمارات خِصْب الزمان وجُدوبته . إلى غير ذلك .

وكان غرضي في جميع ما أتيت به، الاختصار على ما تعرف العرب في ذلك ونستعمله ، دون ما يدعيه المنسوبون إلى الفلاسفة من الأعاجم ، ودون ما يدعيه أصحاب الحساب ؛ فإنني رأيت علم العرب هو : العلم الظاهر للعيان ، الصادق عند الامتحان ، النافع لنازل البر ، وراكب البحر ، وابن السبيل . يقول الله جل وعز : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ لَكُمْ النُّجُومَ لَتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ فكم من قوم حاد بهم الليل عن سواء السبيل في لجج البحار ، وفي المهامة والقفار ، حتى أشرفوا على الهلاك . ثم نجاهم الله بنجم أمره ، أو بريح استنشأوها .

وقال ابن أحر و ذكر فلاة :

يُهِلُّ بِالْفَرَقْدِ رُكْبَانُهَا كَمَا يُهِلُّ الرَّاكِبُ الْمُعْتَمِرُ^(١)

وهؤلاء قوم ضلوا الطريق ، وتمادت بهم الحيرة ، حتى خشوا الملكة ، ثم لاح لهم الفرقد فعرفوا به سَمَتَ وجهتهم ، فرفعوا أصواتهم بالعكبير كما يرفع المعتمر صوته بالتلبية .

ويقال : إن أعلم العرب بالنجوم : كلب وبنوشيبان ، وإن العلم من كلب في ماوية ، ومن شيبان : في مُرَّة .

صحبني رجل من الأعراب في فلاة ليلا ، فأقبلتُ أسأله عن محال قوم من العرب وميَاهِمهم ، وجعل يدلني على كل محلة بنجم ، وعلى كل خباء بنجم ، فرميا أشار إلى النجم وسماه ، وربما قال لي : تراه ، وربما قال لي ؛ وَلَّ وجهك كذا — أي : اجعل مسيرك بنجم كذا — حتى تأتيهم . فرأيتُ النجوم تقودهم إلى موضع حاجاتهم ، كما تقود مَهَاسِيع الطريق سالك العمارات

ولحاجتهم إلى التقلب في البلاد ، والتصرف إلى المعاش ، وعلمهم أن لا تقلب
ولا تصرف في الفلوات إلا بالنجوم — عُنُوا بمعرفة مناظرها .

ولحاجتهم إلى الانتقال عن محاضرهم إلى المياه ، وعلمهم أن لا تُقَلَّ إلا لوقتٍ
صحيح يوثق فيه بالغيث والسكلا — عُنُوا بمطائرها ومساقطها .

هذا مع الحاجة إلى معرفة وقت الطَّرْق ، ووقت التَّناج ، ووقت الفِصَال
ووقت غَوْر مياه الأرض وزيادتها ، وتأثير النخل ؛ ووقت يَنْعِ الثمر ، ووقت
جِداده ، ووقت الحصاد ، ووقت وباء السنة في الناس ، وفي الإبل ، وغيرها من
النَّعم ؛ بالطلوع والغروب .

وقد يحتاج نازل المدن ، وسالك العمارات — وإن كان مستغنياً في بعض
الأحوال عن هذا الشأن — إلى معرفته ، مُسْتَظْهِراً به النوايب في الأسفار
والنكبات ، ومعرفة ما يعرفون : من علامات الخصب والجذب ، وعلامات
السحاب المساطر ، والسحاب المُخْلِيف ، والبروق الصادقة والكاذبة ، والرياح
اللاقِحة والحائلة : ومعرفة المغارب والمشارق ، والزَّوال ، والفَجَرَيْن ،
والشَّقَقَيْن ؛ ومعرفة سَمَت القبلة .

وقد كان هذا الشأن عزيزاً ، ولَمُعْنِيُون به قليلاً ؛ والأدب غَضْرٌ ، والزمان
زمان — فكيف به اليوم : مع دُثُور العلم ، وهوت الخواطر ، وإغراض
الناس ١٩ .

وقد قَيَّدَتْ بهذا الكتاب أطرافاً : من هذا الفن ؛ أدركت بعضها
بالتوقيف ، وبعضها بالاعتبار ؛ واستخرجت بعضها من الأشعار ؛ ونهت على

إغفال من أغفل من الشعراء ، وخالف ما عليه أكثرهم ، لشبهة دخلت عليه .
وما أبرأ إليك بعدُ من التثرة والزلة ، وما أستغنى منك — إن وقفت
على شيء — من التنبية والدلالة ؛ ولا أستنكف من الرجوع إلى الصواب
عن الغلط ، فإن هذا الفن لطيف خفي ، وابن آدم إلى العجز والضعف والمجلة
﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ . ونحن نسأل الله أن ينفعنا وإياك بالعلم ،
ويعزفنا قدره ؛ ويجعل شغلنا بالعمل المقرب منه ، ويؤتينا بفضلَه أفضل ما آتاه
من أمَلِه بخير نيّة ، وأرشد هدىً إليه ، إنه الواسع الكريم .

وقد ذكر ابن قتيبة في كتاب « الأنواء » من كتبه : كتاب « تأويل
مشكل القرآن » فقد ذكر في ص ٩ رأياً في قوله تعالى : ﴿ ما إن مفاعمه لتنوء
بالعصبة أولى القوة ﴾ ثم قال : « وهو قول أبي عبيدة ، وهذا قول قد بينت
فساده في كتابي المؤلف في تأويل مشكل القرآن » .

ولم ينص في المشكل على أن هذا الرأي لأبي عبيدة ، بل نُسب « لبعض
أهل اللغة » وقد قلت في التعليق عليه : « يلوح لي أن ابن قتيبة يقصد بقوله
هذا أبا عبيدة . . . راجع تأويل مشكل القرآن ص ١٥٣ — ١٥٧ .

وذكر أيضاً كتاب الميسر والقдах في ص ١٠ ؛ فإنه أنشد قول الراعي :

إذا لم يكن رِسلٌ يعود عليهمُ صربنا لهم بالشوْحَطِ المتقوّبِ

ثم قال : « والشوْحَطِ المتقوّبِ : يعني القдах التي يضرب بها . وقد بينت
هذا في كتاب الميسر » . وما أشار إليه موجود في كتاب الميسر والقдах
ص ٥٢ .

وذكر أيضاً كتاب «الوحش» في ص ٤١ ؛ وهو من الكتب المفردة .

(١٠) كتاب فضل العرب والتنبيه على علومها :

ذكره ابن قتيبة في كتاب الشعر والشعراء ٨/١ ، ٥٠ ، وفي عيون الأخبار ١٨٥/٢ ؛ ونقل منه نتفة في وصف الشعر . وقد طبع قسم : مما وجد منه ، في كتاب رسائل البلغاء للأستاذ محمد كرد علي .

(١١) كتاب الميسر والقдах :

ذكره ابن قتيبة في كتاب إصلاح الغلط (لوحة ٢٦ — ب) ؛ حيث يقول : « وقد ذكرت هذا في كتاب الميسر بأكثر من هذا الشرح ، ولم يحتمل هذا الكتاب أن يتجاوز فيه مقدار ما ذكرنا . فإذا آثرت أن تعرف أمر الميسر وكيفيته ، ويضح لك ما ذكرته في هذا الحديث أكثر من هذا الوضوح — : نظرت في ذلك الكتاب إن شاء الله » .

وقد طبعه الأستاذ محب الدين الخطيب سنة ١٣٤٢ هـ .

(١٢) كتاب المعارف :

ذكره ابن قتيبة في مقدمة عيون الأخبار . وقد طبع مرارا ؛ وأول من طبعه المستشرق « وستنفل » سنة ١٨٤٠ م .

وقد جاء في مقدمة كتاب الفاخر للفضل بن سلمة ص ١ : عن أحمد بن عبيد الله بن أحمد قال : « أملى علينا أبو بكر : محمد بن يحيى الصولي ، رحمه الله ، هذا الكتاب ؛ وكان سبب إملائه إياه علينا : أن رجلا ممن كان يحضر

مجلسه ، يحضر مجلس أبي بكر : محمد بن القاسم الأنباري ، رحمه الله ؛ فرأى يوماً في يده كتاباً ، فأخذه يقرأه ، فوجد مجلداً من كتاب الزاهر ؛ فقال : هذا منقول من كتاب الفاخر للمفضل بن سلمة ؛ كما نقل أبو محمد بن قتيبة كتابه في المعارف ، من كتاب المحبر لابن حبيب ... » . وقد طبع كتاب المحبر في الهند سنة ١٣٦١ هـ . بتصحيح الدكتور إيلزه ليحتن شتير إحدى العالمات بأمریکا . وقد قرأت كتاب المحبر ، وقارنت بينه وبين المعارف ؛ فتبينت تجنى الصولى ، وإسرافه في قوله : إن المعارف منقول منه . وتفصيل القول في ذلك يقع في موضعه : من مقدمة طبعة المعارف إن شاء الله . وأظن أن المسعودي يقصد كتاب المعارف ، في كلامه على تاريخ أبي حنيفة أحمد بن داود الدينوري . المتوفى سنة ٢٨٢ هـ ؛ حيث يقول : « إن ابن قتيبة أخذ ما ذكره ، وجعله عن نفسه » .

وقد ذكر ابن قتيبة كتاب الشعر والشعراء ، في كتاب المعارف ص ٢٣٨ -

(١٣) كتاب عيون الأخبار :

وفيه عشرة كتب :

كتاب الزهد	كتاب السلطان
» الإخوان	» الحرب
» الحوائج	» السؤدد
» الطعام	» الطبائع والأخلاق
» النساء	» العلم

وقد طبعته دار الكتب المصرية في سنة ١٣٤٣هـ، طبعة يشيع فيها التصحيف والتحريف . ولعل مرد ذلك إلى أنه من أوائل الكتب التي تولى القسم الأدبي تحقيقها . وقد أشار ابن قتيبة في مقدمته إلى كتاب الأشربة ، كما أشار إليه في ٣٢٥/١ ، وإلى كتاب أبيات المعاني ١٥٨/١ وكتاب الشعر والشراء ١٨٥/٢ ، وكتاب العرب ١٨٥/٢ ، وكتاب غريب الحديث ٢٤٤/٢ ، ٩/٤ .

وقال أبو بكر بن دريد ، وقد تذاكر مع جماعة من جلسائه متنزهات الدنيا ، وسمى كل منهم أنزه مكان رآه : « هذه متنزهات العيون ، فأين أنتم عن متنزهات القلوب ؟ فقالوا له : وما هي ؟ قال : عيون الأخبار للقمي ، والزهرة لابن داود ، وقلق المشتاق لابن أبي طاهر » .

(١٤) كتاب أدب الكاتب :

ويحتوى على أربعة كتب :

كتاب المعرفة كتاب تقويم اللسان

» تقويم اليد » الأنبياء

وقد طبع منه اثنا عشر باباً في ليبرج سنة ١٨٧٧ م ، ثم طبع كاملاً في ليدن سنة ١٩٠١ م ، وطبع بعد ذلك بمصر مراراً .

وقد شرح خطبته أبو الكرم المبارك بن الفاخر المتوفى سنة ٥٠٠ هـ .

وأبو القاسم : عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي المتوفى سنة ٣٥٠ هـ . ومنه
نسخة خطية يدار الكتب المصرية كتبت سنة ٥٨٦ هـ .

وشرح أبياته أحمد بن محمد الخارزنجي المتوفى سنة ٣٤٨ هـ .

وقد شرحه أبو محمد : عبد الله بن محمد المعروف بابن السيد البطليوسي .
للمتوفى سنة ٤٢١ هـ وسمى شرحه : الاقتضاب في شرح أدب الكتاب . وقد
جعله ثلاثة أجزاء ، قصر الأول منها على شرح الخطبة ، والثاني على التنبيه
على الأغلاط ، والثالث على شرح الأبيات . وقد طبع بيروت سنة ١٩٠١ م .

وجاء في بغية الوعاة - في ترجمة أحمد بن محمد بن أحمد بن المرسى أبي العباس .
ابن بلال المتوفى قريباً من سنة ستين وأربعمائة - : « ونسب إليه ابن خلسة
النحوي شرح أدب الكاتب المسمى بالاقتضاب ، وذكر : أن ابن السيد
البطليوسي أغار عليه وانتحلّه » . وقد شرحه أيضاً أبو منصور : موهوب بن
أحمد الجواليقي المتوفى سنة ٥٣٩ هـ ؛ وقد طبع بالقاهرة سنة ١٣٥٠ هـ ، وقدم
له المرحوم الأستاذ مصطفى صادق الرافعي .

كما شرحه سليمان بن محمد الزهراوى تلميذ أبي القاسم الزجاجي .

وشرحه أبو إبراهيم : إسحاق بن إبراهيم الفارابي : صاحب ديوان الأدب .

وشرحه أبو جعفر : أحمد بن داود بن يوسف الجذامي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ .

وشرحه أبو الحزم : الحسن بن محمد بن يحيى بن عليم البطليوسي المتوفى

سنة ٥٧٦ هـ .

وقد ألف أبو الحسن : محمد بن أحمد بن إبراهيم بن كيسان - : كتابا في
تقدمه ، أسماء : « غلط أدب الكاتب » .

وقال ابن خلدون في مقدمته ص ٥٥٣ أثناء كلامه على علم الأدب :
« وسمعنا من شيوخنا في مجالس التعاليم : أن أصول هذا الفن وأركانها أربعة
دواوين ، وهي أدب الكاتب لابن قتيبة ، وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب
البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبي علي الفارسي البغدادي ، وما سوى
هذه الأربعة فتبع لها ، وفروع عنها ! » .

وقال ابن خلكان في « وفيات الأعيان » ٢/٢٤٧ : « والناس يقولون :
إن أكثر أهل العلم يقولون : إن أدب الكاتب خطبة بلا كتاب ،
و « إصلاح المنطق » كتاب بلا خطبة . وهذا فيه نوع تعصب عليه ، فإن
أدب الكاتب قد حوى من كل شيء ، وهو مُفَنَّن ، وما أظن تحلمهم على هذا
القول إلا أن الخطبة طويلة ، والإصلاح بغير خطبة .. » .

(١٥) كتاب الشعر والشعراء :

طبع هذا الكتاب للمرة الأولى في لندن سنة ١٨٧٥ م ؛ ثم أعيد طبعه
فيها سنة ١٩٠٢ م بتحقيق المستشرق الكبير دي غويه : وطبع بعد ذلك
في مصر وفي غيرها ، وكان آخرها طبعة الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر التي
طبعها في مطبعة عيسى الحلبي سنة ١٣٦٤ ، ١٣٦٦ ؛ وهي في جزئين عرضت
لها بالتحقق في مجلة الكتاب في عدد يونية ١٩٤٦ صفحة ٢٩٥ - ٣٠٩ وعدد
ديسمبر ١٩٥٠ م ، صفحة ٩٢٨ - ٩٣٤ .

وقد ذكر ابن قتيبة في هذا الكتاب — من كتبه — : كتاب الأثرية
١٣٨/١ ، ٨٢٧/٢ ، وكتاب العرب ٨/١ ، ٥٠ ، وكتاب غريب الحديث
٦٨٤/٢ .

(١٦) كتاب المسائل والأجوبة ، في الحديث واللغة :

طبعه الأستاذ حسام الدين القدسي . في مطبعة السعادة سنة ١٣٤٩ هـ .
ويبدو أن هذه الطبعة غير كاملة ؛ لأنني وجدت ابن السيد قد نقل منه
نصاً في ص ٧ ٢ ليس له أثر فيها .

وقد أشار ابن قتيبة في هذا الكتاب ، إلى غريب الحديث ص ١٥ .

(١٧) كتاب الاختلاف في اللفظ ، والرد على الجهمية والمشبّهة :

وقد طبعه القدسي في مطبعة السعادة سنة ١٣٤٩ هـ بتحقيق الشيخ محمد
زاهد الكوثري .

(١٨) كتاب تأويل مشكل الحديث :

رواه عنه حفيده عبد الواحد بن أحمد كما في فهرس ابن خير ١٩٩ - ٢٠٠

طبع بمطبعة كردستان العلمية بالقاهرة سنة ١٣٤٦ هـ ، باسم : « تأويل
مختلف الحديث » .

وهو كتاب فريد ، تحدث فيه عن موقف علماء الكلام من أهل الحديث ،
وما تحدثوا عنهم به : من شتى التهم والمثالب ؛ وعرض بالنقد لما ذهب إليه
النظام : من اعتراضه على أبي بكر وعمر وعلى ، وطعنه على ابن مسعود وحذيفة
وأبي هريرة . ونقد كذلك ثمامة بن الأشرس ، ومحمد بن الجهم البرمكي

والجاحظ ، وأبا الهذيل العلاف ، وغيرهم ؛ وعرض لأهل الرأي ، وأبان عن
مناذرتهم للكتاب والسنة . وأدار الجزء الأكبر من كتابه على الأحاديث :
التي ادعى عليها التناقض والاختلاف ومخالفة القرآن ؛ والأحاديث : التي زعموا
أن النظر يدفعها ، وحجة العقل تدمغها ؛ فكشف عن معانيها التي صرفهم
عن فقهها : الهوى الجوح ، ولفتهم عن وجه الحق فيها : إلحاد الضمائر
والقلوب والعقول .

(١٩) كتاب الأشربة^(١) :

طبعه المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٢٦٦ هـ ، بتحقيق الأستاذ محمد
كرد علي ؛ وهي طبعة رديئة ، مليئة بالتصحييف والتحريف ؛ وقد قدت بعض
ما فيها في سلسلة مقالات نشرتها بمجلة الرسالة سنة ١٩٤٩ م في العدد ٨٢٩
وما بعده .

(٢٠) كتاب المعاني الكبير :

قال ابن النديم : « إنه يحتوي على اثني عشر كتابا ، منها :

كتاب القوس ، ستة وأربعون بابا .

» الإبل ، ستة عشر بابا .

» الحرب ، عشرة أبواب .

» القدور ، عشرون بابا .

» الديار ، عشرة أبواب .

» الرياح ، أحد وثلاثون بابا .

(١) راجع ابن خير ٢٦١

كتاب السباع والوحوش ، سبعة عشر بابا .

» الهوام ، أربعة عشر بابا .

» الأيمان والدواهي ، سبعة أبواب .

» النساء والغزل ، باب واحد .

» الشيب والكبر ، ثمانية أبواب .

» تصحيف العلماء ، باب واحد .

وقد طبع ما وجد من هذا الكتاب في الهند سنة ١٣٦٨ هـ ، في ثلاثة مجلدات بلغ عدد صفحاتها : ١٢٧٠ صفحة من القطع الكبير ، غير فهرسها .

وقد أشار ابن قتيبة إلى هذا الكتاب ، في عيون الأخبار ١/ ١٥٨ ؛ حيث يقول : « وقد فسرنا هذا الشعر في كتابي المؤلف في أبيات المعاني ، في خلق الفرس » ؛ وما أشار إليه موجود في المعاني ١/ ١١٠ - ١١٢ .

وقد أشار المعاني إلى كتاب الأنواء ص ٣٧٥ ، ٧٣٨ .

والكتاب الثاني عشر من كتاب المعاني - وهو : « تصحيف العلماء » - من الأقسام الضائعة من الكتاب ؛ وقد ألف ابن المزيان عبد الله بن جعفر ابن درستويه (٢٨٨ - ٣٤٧) ، في قدده ، كتابا جعل عنوانه : « الرد على ابن قتيبة في تصحيف العلماء » .

(٢١) كتاب عيون الشعر :

قال ابن النديم : « يحتوي على عشرة كتب منها :

كتاب المراتب

» القلائد

» المحاسن

» المشاهد

» الشواهد

» *الجواهر

» المراكب .

(٢٢) كتاب التفتية :

قال ابن النديم : « هذا كتاب رأيت منه ثلاثة أجزاء ، نحو ستمائة ورقة ، يخط برك ، وكانت تنقص - على التريب - جزئين ، وسألت عن هذا الكتاب جماعة : من أهل الخط ؛ فزعموا : أنه موجود ؛ وهو أكبر من كتاب البندنجي ، وأحسن من كتبه » .

(٢٣) كتاب العلم :

قال ابن النديم : « نحو خمسين ورقة » .

(٢٤) كتاب جامع النحو الكبير .

(٢٥) » جامع النحو الصغير .

(٢٦) » الحكاية والمحكى .

(٢٧) » الخليل .

- (٢٨) كتاب إعراب القرآن .
- (٢٩) » ديون الكتاب .
- (٣٠) » فرائد الدر .
- (٣١) » خلق الإنسان .
- (٣٢) » القراءات .
- وقد أشار إليه في تأويل مشكل القرآن ص ٤٥ .
- (٣٣) كتاب دلائل النبوة ، ويسميه القاضى عياض فى المدارك :
- » أعلام النبوة » .
- وقد ذكره السخاوى فى الإعلان بالتوبيخ ٩١ ، ورواه عنه قاسم بن أصبغ
- روايته أحمد كما فى فهرس ابن خير ص ١٥١
- (٣٤) كتاب جامع الفقه .
- (٣٥) » حكم الأمثال .
- (٣٦) » آداب العشرة .
- (٣٧) » التفسير ، ذكره القاضى عياض .
- (٣٨) » معجزات النبى صلى الله عليه وسلم ، ذكره أبو الطيب
- الحامى فى مرآب النحويين .
- (٣٩) » تأويل الرؤيا ، ذكره ابن قتيبة فى مقدمة عيون الأخبار .
- (٤٠) » استماع الفناء بالألحان .
- (٤١) » الرد على القائل بخلاق القرآن .
- (٤٢) » آداب التمرأة .

(٤٣) » الجوابات الحاضرة .

(٤٤) » تأويل مشكل القرآن .

أشار إليه ابن تتيبة في أدب الكاتب ص ١٩ وفي تأويل مختلف الحديث ص ٨٣ ، ٣١٤ وفي كتاب « الأنواء » ص ٩ وفي كثير من صفحات تفسير غريب القرآن .

وقد ذكر فيه من كتبه : كتاب « القراءات » ص ٤٥ وكتاب تفسير غريب الحديث ص ٢٨ ، ٤٥ ، ٥٨ ، ٩٩ ، ٢٠٥ ، وكتاب تفسير غريب القرآن ص ٢٥ .

(٤٥) كتاب الجرائم .

وتوجد منه نسخة خطية عتيقة ، في المكتبة الظاهرية (٥٩ لغة) ، تقع في ٤٤٠ صفحة ؛ كتب عليها : « كتاب الجرائم ، مستوعب لأسماء أصول العالم والبهائم والوحش والطيور والسباع والموام ، وكل نسمة تعرف ؛ ومنصرفاتهم ، وأفعالهم ؛ وأسماء أنواع الأرض والشجر والنبات ؛ وغير ذلك ؛ والوحوش ، وقوافي الشعر . تأليف : أبي محمد : عبد الله بن مسلم » . ومجلد كتاب الجرائم هذا يحتوي على عدة كتب لفوية ، نشر منها الأب موريس بويجس كتاب : « النعم والبهائم والوحش والسباع والطيور ، وحشرات الأرض » ؛ سنة ١٩٠٨ م ونسبه لأبي عبيد : القاسم بن سلام .

كما نشر الدكتور « أوغست هفتر » كتاب : « النخل والكرم » في مجلة المشرق ، ونسبه للأصمعي . ثم أعاد نشره « الأب لويس شيخو » في

المجموعة اللغوية التي سماها : « البلغة في شذور اللغة » ولكنه لم يرتض نسبته للأصمى ، ونسبه لأبي عبيد ؛ وقال : « وما يحملنا إلى نسبته لأبي عبيد : أن الشروح للفردات توافق ما جاء في لسان العرب والمخصص ، منسوبا لأبي عبيد أكثر منها للأصمى ؛ ومن المحتمل أيضا : أن يكون الكتاب لأبي حاتم السجستاني تلميذ الأصمى ... » .

وقد نشر « شيخو » أيضا — من كتاب الجرائيم — كتاب : « الرجل والمنزل » ؛ وشك في نسبته لابن قتيبة ؛ لأنه لم يذكره أحد ضمن مصنفاته ؛ ومال إلى أنه لأبي عبيد ؛ لأن معظم مضامين هذا الكتاب قد رويت في اللسان والمخصص منسوبة له .

وقد نشر أيضا منه تلك المجموعة فصلا عنوانه : « أبواب اللبن والشراب » ؛ ولم يحاول نسبته إلى أحد غير ابن قتيبة .

ولسنا نستطيع أن نتبين : هل هذه الكتب المنشورة من كتاب الجرائيم لابن قتيبة ؟ أم هي ملحقة به ؟ ؛ لأننا لم نحصل بعد على صورة منه ؛ كما لا نستطيع كذلك : أن ندفع الكتاب عن ابن قتيبة ؛ لأن المترجمين له لم يذكروه في كتبه ؛ ولأن بعض شروح الكتب التي يحتويها توافق ما نسب في كتب اللغة لأبي عبيد ، أو للأصمى ، أو لغيرها ؛ فمن طبيعة التأليف اللغوي النقل ولا سيما عن أعلامها السابقين ؛ ولم يزعم المترجمون ولا زعم لهم زاعم : أن الكتب التي يذكرونها لمن يترجمون لهم ، هي على سبيل الحصر والاستقراء .

(٤٦) كتاب معانى القرآن :

وقد قرأه عليه قاسم بن أصبغ ، المتوفى سنة ٣٤٠ هـ . وذكره القاضى عياض فى ترجمة ابنه أحمد .

* * *

هذه أسماء كتب ابن قتيبة بعد إسقاط ما كرهه المترجمون له : فقد ذكرناه كتباً كثيرة ، وهى فى حقيقة أمرها أجزاء من كتب ؛ ككتاب : « الفرس » الذى ذكره القفطى ، وهو من « معانى الشعر » ؛ وكتاب : « تقويم اللسان » الذى أشار إليه صاحب كشف الظنون ، فإنه من « أدب الكاتب » ؛ وكتاب : « المراتب والمناقب » الذى ذكره ابن النديم وهو من « عيون الشعر » ؛ وكتاب : « الأبنية » الذى ذكره القاضى عياض ، فإنه من « أدب الكاتب » .

وعدة الكتب التى ذكرناها هنا : سبعة وأربعون كتاباً ، منها أربعة كتب تشتمل على اثنين وخمسين كتاباً ، كما سبق . فأين بقية كتبه التى قال أبو العلاء المعرى : إنها خمسة وستون كتاباً ؟ .

هل هى كتب أخرى مستقلة ضل عن التاريخ ذكرها ؟ أم هى أجزاء من تلك الكتب المشتملة على كتب عدّها العادون كتباً مفردة ؟ . علم ذلك عند علام الغيوب .

ولست أميل إلى تصديق صاحب « التحديث بمناب أهل الحديث » ، فى قوله الذى انفرد به : إن كتب ابن قتيبة زهاء ثلاثمائة كتاب . فلو كان

ذلك كذلك : لاهتم ابن النديم ببيانها ، كما صنع في تراجم المؤلفين المكثرين :
من أمثال أبي عبيدة ، والمدائني ، وهشام الكلبي .

* * *

وقد نسب إلى ابن قتيبة كتاب مشهور شهرة بطلان نسبته إليه ؛ وهو
كتاب : « الإمامة والسياسة » .

وهل يسوغ هذه النسبة عقل ؟ مع عرفانه : بأن مؤلف « الإمامة والسياسة »
ذكر : أنه استمد معارفه من أناس حضروا ففتح الأندلس في سنة ٩٢ هـ .
وأن موسى بن نصير غزا مدينة مراکش في زمن الرشيد ؛ مع أن ابن قتيبة ولد
في سنة ٢١٣ ، ومات في سنة ٢٧٦ ؛ ولم تكن مدينة مراکش إلا في سنة ٤٥٤ هـ :
في عهد يوسف بن تاشفين ، سلطان المرابطين . ١٩ .

إن هذا وحده يدفع نسبة الكتاب إلى ابن قتيبة ، فضلاً عن قرآن وأدلة
أخرى كلها يثبت تزوير هذه النسبة .

* * *

وقد نسبت إليه أيضاً : « وصية إلى ولده » ؛ نشرها الدكتور إسحاق
موسى الحسيني في مجلة الجامعة الأمريكية ببيروت ، عن مجموعة خطية محفوظة
بمكتبة تلك الجامعة ، كتبت في الإسكندرية سنة ٤٨٦ هـ وقد أقيمت على
قراءة هذه الوصية : فرحاً مشوقاً ؛ وما إن فرغت من قراءتها حتى كان
الشك في نسبتها إليه قد قرّر قراره في نفسه ؛ لأن معانيها سطحية مفككة ،

وأفكارها ساذجة محتاجة ؛ وأسلوبها يباين أسلوب ابن قتيبة المشرق الرصين وإن شئت فاقراً فيها قول كاتبها : « يا بني إذا أقيت أحداً من إخواني وأصحابي : فأقرهم مني السلام ؛ وأخبرهم عنى بالله عز وجل ، قال : ﴿ آمن وعدناه وعداً حسناً فهو لآقيه ، كمن متّعناه متاع الحياة الدنيا ﴾ ، ﴿ فلا نفرتمكم الحياة الدنيا ولا نفرنكم بالله الغرور ﴾ . واعلم : أن الله عز وجل بنى داراً لمن لا دار له ، يجمع فيها من لا فعل له ؟ » .

« يا بني قد صحبت لك طوائف من الناس ، وبلوت أخبارهم ؛ فما رأيت طائفة أجل وأعظم قدراً من أهل الفقر إلى الله عز وجل ، والفاقة والمسكنة إلى الله عز وجل ؛ فالزمهم وجالسهم واخدمهم بنفسك ، وتواضع لهم بحسبك ؛ وتقرب إلى الله عز وجل بالنظر إليهم ، وواسهم بما قدرت عليه ، وتغافل عن زلاتهم ، وأحسن ظنك بهم ؛ فإن الله عز وجل يؤيدهم إذا ماتوا إن شاء الله » .

« وعاميك بمجالسة الفقراء أهل الفقر والمسكنة إلى الله ، واخدمهم بنفسك ، وتحبب إلى الله عز وجل في المحبة لهم ، وابذل لهم مالك وجاهك ، وتبرك بدعائهم ، ودم على صحبتهم ؛ فإن لهم يوم القيامة دولة ، وعند الله تعالى شفاعة » .

« يا بني إني راغب إلى الله في مسألتى له : أن يجعلك خلفاً من بعدى ، تخلفني في علمي ومذهبي . »

« يا بني طوبى عن الأمة نفساً ، وارض بالرحن أنساً ، فما أحد يعدل في الخبرة فلساً » .

وما أظن إلا أن هذه الفقرات سنثير في نفسك الشك : إن كنت لكتب ابن قتيبة من القارئین ؛ كما أنى لا أعلم لابن قتيبة مذهباً صوفياً ، يتمنى أن يخلفه ابنه فيه . ولو كان لتحدث عنه الصوفية وغيرهم . على أن هذه « الوصية » قطعة من كتاب لم يصل إلينا كاملاً ؛ وآية ذلك ما جاء في صفحة ٧ : « واعلم يا بني : أن أصول البدع كلها من خمسة : من القدرية ، والمرجئة ، والجهمية ، والرافضة ، والخوانرج . ومنها تنشعب الفرق كلها حتى تنتهى إلى ثلاث وسبعين فرقة ؛ لاذى جاء به الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة : اثنتان وسبعون منها الكفة ، والواحدة منها ناجية : الذى أمار عليه وأصحابى . والجهمية : الذين يقولون : إن القرآن مخلوق ؛ ويؤمنون بالقدر ؛ ويقولون : إن الله عز وجل حال في كل شيء ، كالشيء في الشيء ، وكالروح في الجسد . والخوانرج : هم الذين يقولون بتقديم الشيخين : أبى بكر وعمر ؛ ويرون إمامتهما ، ويتبرءون من عثمان وعلى . وقد بينت وسميت أئمتهم في هذا الكتاب ا » .

وليس في « الوصية » بيان عن الخوانرج ، ولا تسمية لأئمتهم ، وكان خليفة أنا بنشرها أن يشير إلى ذلك .

ولو كانت تلك الوصية لابن قتيبة حقاً . لما كانت إلا لابنه أحد ؛ ولو

كانت له : لحدّث بها فيما حدث عن أبيه ، ولأكثر من التحديث بها لأسباب شتى : من حوافز النفس ، ودواعي الاجتماع .

* * *

وكان من شأن ابن قتيبة : أن يخلو إلى نفسه في بيته ، فيؤلف كتبه ، ويجوّد تأليفها ؛ ثم يخرجها للناس ويقرّها لمن شاء : من طلاب علمه وأدبه .
وقد تلمذ له عدد كبير ، نذكر منهم ما يلي :

(١) ابنه أحمد ، قال القاضى عياض في ترجمته له في كتاب « المدارك » :
« أبو جعفر بن قتيبة ؛ هو أحمد بن عبد الله بن مسلم الدينورى ، البغدادى .
النشأة . كان مالكي المذهب ، من أهل العلم والحفظ لكتب أبيه ؛ وكان يحفظها كما يحفظ القرآن ، ويردّ فيها من حفظه النقطة والشكلة : وما معه نسخة ! كان أبوه أبو محمد حفظها إياه في اللوح ! وعدتها أحد وعشرون مصنفًا : كتاب المشكل ، معاني القرآن ، غريب القرآن ، غريب الحديث ، عيون الأخبار ، مختلف الحديث ، التفسير ، الفقه ، المعارف ، أعلام النبوة ، العرب والعجم ، الأنواء ، طبقات الشعراء ، معاني الشعر ، إصلاح الخط ، نأدب الكتاب ، الأبنية ، النحو ، المسائل ، القراءات .

سمع منه خلق عظيم من الجلة — بالعراق ومصر — كأحمد بن ولاد ، وأبى جعفر النحاس ، وأبى عاصم المظفر بن أحمد ، وأبى على القالى ؛ وغيرهم : من جلة أهل الأدب والرواية .

وكان مجلسه : لعميون الناس ، وأعيان النبهاء . ولم يكن عنده حديث إلا ما في كتب أبيه . ولما قضى مصر سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة . وردّها : وقد لبس السواد ؛ وحكم في جامعها ، واستخلف الفقيه أبا الذر المالكى على فرض النساء . وكان في خلقه حدة . وتوفى في ربيع الأول سنة اثنتين وعشرين بمصر ، بعد صرفه . وكانت ولايته القضاء بمصر : ثلاثة أشهر .

وله ابن اسمه : عبد الواحد ، روى عن أبيه ؛ سمع منه أبو عبيد الله الوشاء المصرى .

وقال الخطيب البغدادي - في ترجمة عبد الواحد ٨/١١ : « يكنى عبدُ الواحد : أبا أحمد . ذكر : أنه ولد ببغداد في سنة سبعين ومائتين ، وانتقل إلى مصر فسكنها ، وروى بها - عن أبيه عن جده - كتبه . سمع منه أبو الفتح بن مسرور البلخي ، وقال : كان ثقة » .

ومن الكتب التي قرأها أبو علي القالي (٢٨٨ - ٣٥٦ هـ) على أبي جعفر : أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة - : كتاب عيون الاخبار ، وأدب الكاتب .

وقد قرأ عليه كتب أبيه كلها : أبو القاسم الآمدي ، المتوفى سنة ٣٧٠ هـ . وقد قرأها جميعاً على الآمدي : أبو غالب : محمد بن بشران بن دينار ، المتوفى سنة ٤٠٩ هـ .

قد قرأ على أحمد أيضاً : أبو الفتح : محمد بن جعفر المرائي ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي : شارح خطبة أدب الكاتب .

(٢) أحمد بن مروان المالكي ، المتوفى سنة ٢٩٨ هـ . وما رواه عنه :
كتاب تأويل مختلف الحديث ؛ وقد وصل إلينا بروايته .

(٣) أبو بكر : محمد بن خلف بن المرزبان ، المتوفى سنة ٣٠٩ هـ .

(٤) أبو القاسم : إبراهيم بن محمد بن أيوب بن بشير الصائغ ، المتوفى سنة
٣١٣ هـ . وقد روى عن ابن قتيبة ، كل مصنفاته .

(٥) أبو محمد : عبيد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن عيسى السكري ،
المتوفى سنة ٣٢٣ هـ . وقد سمع منه غريب الحديث ، وإصلاح الغلط في سنة
٦٢٨ هـ . وقد وصل إلينا من روايته عنه ، كتاب المسائل والأجوبة ،
وإصلاح الغلط .

(٦) أبو القاسم : عبيد الله بن أحمد بن عبد الله بن بكير التيمي ، المتوفى
سنة ٣٣٤ هـ .

(٧) الهيثم بن كليب الشامي ، المتوفى سنة ٣٣٥ هـ . وقد أخذ عنه
الأدب خاصة .

(٨) قاسم بن أصبغ الأندلسي (٢٤٧ - ٣٤٠ هـ) . الذي رحل إلى المشرق
في سنة ٢٧٤ . وقد قرأ عليه المعارف ، وشرح غريب الحديث .

(٩) عبد الله بن جعفر بن درستويه الفسوي (٢٥٧ - ٣٥٥ هـ) وقد
وصل إلينا من رواياته عنه : كتاب الأشربة .

(١٠) أبو القاسم : عبيد الله بن محمد بن جعفر بن محمد الأزدي ، المتوفى سنة ٣٤٨ هـ .

(١١) أبو بكر : أحمد بن الحسين بن إبراهيم الدينوري . وقد روى عنه : مختلف الحديث .

(١٢) أبو بكر : أحمد بن محمد بن الحسن الدينوري . قرأ عليه : تأويل . مختلف الحديث ؛ كما قال ابن بطّة .

(١٣) أبو عبد الله : محمد بن أبي الأسود البلي ، المتوفى سنة ٣٤٣ هـ .

(١٤) أبو اليسر : إبراهيم بن أحمد الشيباني البغدادي ، المتوفى سنة ٢٩٨ هـ .

(١٥) أبو العباس : أحمد بن محمد بن عميرة الأرواني المروزي .

(١٦) أبو العباس : محمد بن علي بن أحمد السكرجي مات ٣٤٣ هـ .

(١٧) أبو رجاء : محمد بن حامد بن الحارث البغدادي المتوفى ١٤٣ هـ .

* * *

هؤلاء هم الذين وقفنا على أنهم تلمذوا لابن قتيبة ، وقرأوا عليه كتبه كلها أو بعضها ، ونهضوا بأمانة نشرها على الآفاق .

ولقد كان ابن قتيبة ، كريماً بعلمه ، سمحاً في إقراء كتبه ؛ لم يؤثر عنه : أنه حبسها عن طلابها حتى يقبض أجره ، كما أثر عن قرينه : أبي العباس المبرد (٢١٠ — ٢٨٥) ؛ الذي كان يساوم طلابه ويمتنع عن تحديث جماعتهم : إذا كان فيهم فرد واحد لم يدفع أجره مقدماً ؛ ولو كان هذا الفرد غريباً حريباً .

* * *

وظل ابن قتيبة : يقرئ كتبه ببغداد ، إلى حين وفاته في خلافة المعتد
الذي يبيع سنة ٢٥٦ ، ومات سنة ٢٧٩ .

وكان سبب وفاة ابن قتيبة - فيما يقول تلميذه أبو القاسم : إبراهيم الصائغ :
« أنه أكل هريسة : فأصاب حرارة ، ثم صالح صيحة شديدة ، ثم أغشى عليه
إلى وقت صلاة الظهر ، ثم اضطرب ساعة ، ثم هدأ ؛ فما زال يتشهد إلى
وقت السحر ، ثم مات . وذلك : أول ليلة من رجب سنة ست وسبعين
ومائتين » .

وقد روى الخطيب البغدادي رواية أخرى عن تاريخ وفاته ، فقال :
(١٧٠/١٠) : « قرأت على الحسن بن أبي بكر ، عن أحمد بن كامل القاضي ،
قال : ومات عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ، في ذي القعدة سنة سبعين
ومائتين » . وهي رواية مدخولة ؛ لأن الثابت الذي لم يشبه شك : أن قاسم
بن أصبغ الأندلسي سمع منه لما رحل إلى بغداد ؛ وكانت رحلته في سنة ١٧٤ هـ .
وقد جاء في المنتظم لابن الجوزي ١٠٢/٥ : « وذكر بعض أهل النقل :
أنه مات بالكوفة ، ودفن إلى جنب قبر أبي حازم القاضي » ؛ وهو قول
مجهول ، لم يعأ به أحد : من المؤرخين .

وقد جاء في ص ٢٠٠ من طبقات النحويين واللغويين لأبي بكر : محمد
ابن الحسن الزبيدي المتوفى سنة ٣٧٩ هـ : أن ابن قتيبة « توفي سنة ست
وتسعين ومائتين » : ولا مرأ في أن « تسعين » . محرفة عن « سبعين » .

لم يتول ابن قتيبة من المناصب - فيما علمنا - إلا منصب القضاء بالديّينور ؛
ولذلك قيل له : الديّينوري . ولنا نعرف : في أى سنة تولى قضاء هذه
المدينة ، ولا مدة بقائه على قضائها ، ولا سبب خروجه منه ؟ ولا نعلم : من
الذى ولّاه ؟ وإن كان يفتب على ظننا : أن الذى ولّاه : الوزير أبو الحسن
عبيد الله بن يحيى بن خاقان ؛ وزير المتوكل ثم المتمدن . وكان المتوكل قد
استوزر محمد بن الفضل الجرجرائى مديدة بعد قتله لمحمد بن عبد الملك الزيات
فى سنة ٢٣٣ هـ ؛ ثم كثرت السمايات به فعزله ، وقال : أريد حدثاً أستوزره ؛
لأنى قد ضجرت من المشايخ . فأشير عليه : بعبيد الله بن يحيى بن خاقان . وظل
عبيد الله وزيراً حتى قتل المتوكل فى سنة ٢٧٤ ؛ وفى سنة ٢٤٨ : نكبه الخليفة
المستعين ونفاه إلى بركة ؛ وعاد عبيد الله إلى بغداد سنة ٢٥٣ ؛ ثم استوزره
المتمدن فى شعبان سنة ٢٥٦ ، ولبث فى رزّارته حتى مات ؛ وكان سبب موته :
أنه لعب فى الميدان مع خادم له اسمه : « رشيق » ؛ فصدمه : فسقط عبيد الله
عن فرسه ، ومات من يومه ؛ فصلى عليه « الموفق » ومشى فى جنازته ؛ وذلك :
يوم الجمعة لعشر خلون من ذى القعدة سنة ثلاث وستين ومائتين .

وقد كان بين ابن قتيبة وبين عبيد الله ، مودة حمّلة على أن يصنّف له
كتاب : « أدب الكتاب » ؛ وأن يقول عنه فى مقدمته : « . . فالحمد لله
الذى أعاد الوزير أبا الحسن - أيده الله - من هذه الرذيلة ، وأبانه بالفضيلة ؛
وحباه بنعيم السلف الصالح ؛ وردّاه رداء الإيمان ، وغشاه بنوره ؛ وجعله هدى
من الضلالات ، ومصباحاً فى الظلمات ؛ وعرفه ما اختلف فيه المختلفون ، على

سنن الكتاب والسنة؛ فقلوب الخيار به مُعْتَلِمَةٌ ، ونفوسهم إليه مائلة، وأيديهم إلى الله فيه - مظانّ القبول - ممتدة ؛ وألسنتهم بالدعاء له شافعة : يَهْجَعُ ويستيقظون ، ويعفّل ولا يغفلون ؛ وَحَقَّ لِمَن قَامَ لِلَّهِ مقامه ، وصبر على الجهاد صبره ، ونوى فيه نِيَّتَهُ - : أن يُلبسه الله لباس الضمير ، ويُرَدِّيه رداء العمل الصالح ، ويَصُورَ إليه مختلفات القلوب ، ويسمده بلسان الصدق في الآخرين .

والذي رجح ظني - في أن عبيد الله بن يحيى هو الذي ولي ابن قتيبة قضاء « الدينور » - قول أبي القاسم الزجاجي في شرح خطبة أدب الكاتب ص ٣٨ - تعتيباً على قول ابن قتيبة . « فالحمد لله الذي أعاد الوزير أبا الحسن » - : « يعني : الخاقاني ؛ وهو عبيد الله بن يحيى الخاقاني ؛ لأنه عمل له هذا الكتاب ، فأحسن صلته ، واصطنعه وصرّفه » .

وإني أرى : أن ابن قتيبة ألف « أدب الكاتب » لعبيد الله في وزارته للمعتمد ؛ لافي وزارته للمتوكل ؛ وقد وزر للمعتمد من سنة ٢٥٦ إلى سنة ٢٦٣ هـ . وهذا الرأي الذي ارتأيتُهُ ، يتعارض على ما ذهب إليه ابن السيد والجواليقي ؛ فإنهما ذهبا إلى أنه أُلْفِهَ له في وزارته للمتوكل ؛ حيث يقول ابن السيد في الاقتضاب ص ٢٤ : « يعني عبيد الله بن يحيى بن خاقان ؛ وكان وزير المتوكل فعمل له ابن قتيبة هذا الكتاب ، وتوسل به إليه ؛ فأحسن عبيد الله صلته ، واصطنعه ، وعنى به عند المتوكل ، حتى صرفه في بعض أعماله » ؛ ويقول الجواليقي في شرحه ص ٤٤ : « يعني بالوزير عبيد الله بن يحيى بن خاقان ،

كاتب المتوكل ؛ لأنه عمل له هذا الكتاب ، فاصطنعه ، وأحسن صلته .
ولا سراة في أنهما أخطآ في ذلك خطأ مبيتاً ؛ والدليل على خطئهما لا حيب
لا ينفذ فيه طعن طاعن ، ولا يطوّر به ريبٌ مُرتاب ؛ فقد قال ابن قتيبة
بعيد كلامه على الوزير : « وأى موقف أخزى لصاحبه من موقف رجل من
الكتاب ، اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه ، وارتضاه لسره : فقرأ عليه كتاباً
ذكر فيه « حاضرٌ طيبٌ » فصبحته تصحيحاً أضحك الحاضرين » . وقال
ابن السيد في شرحه ص ٢٧ : « هذا الكتاب هو : شجاع بن القاسم ،
كاتب أوتامش التركي ؛ وكان يقول عرض الكتب على المستعين أحمد بن
محمد المعتصم . وكان جاهلاً لا يحسن القراءة » . وقال الجواليقي في ص ٩ :
« هذا : شجاع بن القاسم كاتب أوتامش التركي ؛ قرأ على المستعين ،
وصحف هذه اللفظة ، فقال : « حاء ضرطى » . ولو قد فطن ابن السيد
والجواليقي لما نقلاه عن الزجاجي : من أن ابن قتيبة يقصد بالكتاب : شجاع
ابن القاسم ؛ وبالخليفة ؟ المستعين ؛ لما تردّيا في هذا الخطأ ؛ فإن المستعين :
قد بويغ بالخلافة سنة ٢٤٨ ، وخلع في سنة ٢٥٢ هـ .

فكيف يتصور أن يؤلف ابن قتيبة هذا الكتاب لعبيد الله أيام وزارته
للمتوكل ، مع أنه يذكر في مقدمته قصة جرت للخليفة المستعين مع كاتبه
شجاع بن القاسم ؟ ! حقا إن هذا شيء عجاب .

* * *

وقد اتصل ابن قتيبة بالأمير : محمد بن عبد الله بن طاهر ؛ فأغدق عليه

من معروفه ، لعرفانه بقدره ، ولأن إكرام العلماء والأدباء سجية من سجاياها النبيلة، ورثها عن أبيه عبدالله بن طاهر ، أمير خراسان ، المتوفى سنة ٢٣٠هـ .
ومن مظاهر إكرام عبدالله للعلماء : مواقفه الخالدة مع أبي عبيد : القاسم بن سلام ، المتوفى سنة ٢٢٣ هـ . عرض عليه أبو عبيد كتابه : « غريب الحديث » ؛ فاستحسنه وقال : إن عقلا بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب ، لتحقيق أن لا يُنحَوَّج إلى طلب العاش . وأجرى له عشرة آلاف درهم في كل شهر وكان كلما أهداه أبو عبيد كتابا من مؤلفاته : حمل إليه مالا خطيراً . وكرم عبدالله بن طاهر ، إرثاً كذلك من والده طاهر بن الحسين — حين مضى إلى خراسان — بمديته مَرَّو ، فطلب رجلاً يحدِّثه ، فقيل له : ما ههنا إلا رجل مؤدَّب ؛ فأدخل عليه أبو عبيد القاسم بن سلام ، فوجده أعلم الناس بأيام الناس ، والنحو ، واللغة ، والفقه ؛ فقال له : من المظالم تركك أنت بهذا البلد . فدفع إليه ألف دينار ، وقال له : أنا موجه إلى خراسان إلى حرب ، وليس أحب استصعابك ؛ شفقا بك ؛ فاتفق هذا حتى أعود إليك . فألف أبو عبيد « الغريب المصنف » إلى أن عاد طاهر من خراسان ، فحمله معه إلى مَرَّو مَنْ رَأَى .

ومن مظاهر إكرام « آل طاهر » للعلماء ، ما صنعه « طاهر بن عبدالله » : من استقدمه لأبي سعيد الضرير من بغداد إلى نيسابور ، وتكفله بمعيشته : ليفرغ إلى تعليم الناس ما حل من علم وأدب وقد قدم عليه ابن قتيبة من بغداد : فأخذ عنه ، وانتفع به ، وكان له قدوة حسنة .

ومن مظاهر إكرامهم العلماء كذلك ، استقدامهم إلى هراة : الحافظ
أبا جعفر السرخسي المتوفى بنيسابور سنة ٢٥٣ هـ .

وقد جرى محمد بن عبد الله بن طاهر ، على شاكلة قومه : في العناية
بالعلماء والأدباء ، والإلطاف لهم ؛ وعرف هؤلاء قدره ، ونهبوا من ذكره
- وما كان خاملا - وأهدوا إليه مؤلفاتهم وما جادت به قرائحهم ؛ منذ
أن كان شاباً يافعاً .

ولقد سجل ابن قتيبة شعوره نحوه في رسالة كتب بها إليه ، وأثبتها
في عيون الأخبار ٢/٢٢٢ ؛ حيث يقول : « وكتبتُ إلى محمد بن عبد الله
ابن طاهر :

أما شكرى للأمير على سالف معروفه : فقد أغار وأنجد . وأما ابتهاجى
إلى الله في جزائه عنى بالحسنى : فإخلاص النية عند مظان القبول . وأما أملى :
فأحياء - على بعد العهد - بلاؤه عندى - : إذ كان ماتقدم منه شافعاً في
فى المريد - . وفُسْحَةُ وعده إياى عند مفارقتى له : إذ كان مؤذناً بالإيجاز .
وأما زللى فى التأخر عما أوجب الله على له : فمَنَرونُ بالعقوبة فيما حُرِمته من
عِزِّ رياسته ، ونباهة صُحْبته ، وعلوِّ الدرجة به ؛ وإن كنت سائر أيام تنطاعى
عنه ، مُعْتَلِفًا بسبب لاخيار معه » .

ولست أعلم لابن قتيبة علاقة بعظماء عصره ، سوى علاقته بعبيد الله بن
خاقان ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر .

وقد أشار هو إلى علاقة لم ينصح عنها : فانيهم أمرها علينا ؛ حيث يقول

في عيون الأخبار ٢٨/١ : « وكتبتُ إلى بعض السلاطين كتابا ، وفي فصل منه : ولم يزل حَزَمَةُ الرجال يستحلون مرارة قول النُصحاء ، ويستهدون العيوب ، ويستثيرون صواب الرأي من كلِّ حتى الأمة الوُكَّاء .

ومن احتاج إلى إفاضة دليل على ما يدَّعيه - : من مودته ، وبقاء طويته . - .
فقد أغنانى الله عن ذلك بما أوجبه الاضطرار ؛ إذ كنت أرجو بدوام نعمتك ، وارتفاع درجتك ؛ وانبساط جاهك وبذك - زيادة الحال . »

آراء العلماء في ابن قتيبة :

١ - قال أبو منصور الأزهري (٢٨٢ - ٤٧٠ هـ) في مقدمة كتاب التهذيب ص ١٣ : « وإذ فرغنا من ذكر الأثبات المتقدمين ، والثقات المبرزين : من اللغويين ؛ وتسميتهم طبقة ، إعلاماً لمن غبى عليه مكانهم من المعرفة ، كي يعتمدوهم فيما يجدون لهم من المؤلفات المروية عنهم - : فلنذكر بعقب ذكركم ، أقواماً : تسموا بسمه المعرفة ، وعلم اللغة ؛ وألفوا كتباً : أودعوها الصحيح والسقيم ؛ وحشوها بالزوال المنسد ، والمصحف المغير : الذي لا يتميز ما يصح منه إلا عند النقب المبرِّز ، والعالم الفطن . لنحذر الأغمار اعتماد مادونوا ، والاستنامة إلى مآلفوا . فمن المتقدمين : الليث بن المظفر ... وقطرب ... » ؛ ثم عرض الأزهري للجاحظ ، وتلميذه ابن قتيبة ، فقال ص ١٥ : « ومن تكلم في لغات العرب بما حضر لسانه ، وروى عن الأئمة في كلام العرب ما ليس من كلامهم - : عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ وكلن أوتى : بسطة في لسانه ، وبياناً عذباً في خطابه ، ومجالاً واسعاً في فنونه ، غير أن

أهل المعرفة بلغات العرب ذمّوه ، وعن الصدوق دفعوه ، وأخبر أبو عمر الزاهد : أنه جرى ذكره في مجلس أحمد بن يحيى [ثعلب] ، فقال : أعزّبوا عن ذكر الجاحظ ، فإنه غير ثقة ولا مأمون .

وأما أبو محمد : عبد الله بن مسلم الدينوري : فإنه ألف كتابا في مشكل القرآن وغريبه ، وألف كتابا غريب الحديث ، وكتابا في الأنواء ، وكتابا في أدب الكتبة ؛ ورد على أبي عبيد حروفا في غريب الحديث ، سماها : « إصلاح الغلط » ؛ وقد تصفحتها كلها ، ووقفت على الحروف التي غلط فيها وعلى الأكثر الذي أصاب فيه . فأما الحروف التي غلط فيها : فإني أثبتتها في مواقعها من كتابي ، ودلت على موضع الصواب فيما غلط فيه .

وما رأيت أحدا يدفعه عن الصدوق فيما يرويه : عن أبي حاتم السجزي ، والعباس بن الفرّج الرّياشي ، وأبي سعيد المـكفوف البغدادي .

فأما ما يستبد فيه برأيه - : من معنى غامض ؛ أو حرف : من علل التصريف والنحو ؛ مشكل ، أو حرف غريب - : فإنه ربما زلّ فيما لا يخفى على من له أدنى معرفة .

والنّيته يحدث بالظن فيما لا يعرفه ، ولا يحسنه .

ورأيت أبا بكر بن الأنباري : ينسبه إلى الغفلة ، والغباوة ، وقلة المعرفة . وقد ردّ عليه قريبا من ربع ما ألّفه : من مشكل القرآن .

ولالأزهري عنه كلمة أخرى ، وردت في اللسان ٣٣٦/١٣ : « وقال

الفتيبي في تفسير قوله تعالى ﴿ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ﴾ ؛ أى : فرقنا ؛ وهو من زال يزول وأزله أنا . قال أبو منصور : وهذا غلط من الفتبي ، ولم يميز بين زال يزول ، وزال يزِيل ، كما فعل القراء .

وقد عرض أبو منصور الأزهرى للكلام على رواية ابن قتيبة ، أثناء حديثه عن أبي حامد الخارَزَنجى البُشْتى ، في مقدمة التهذيب ، إذ يقول : « ومن ألف في عصرنا هذا فصَحَّفَ وغيرَ ، وأزال العربية عن وجهها - : أحمد بن محمد البشتى ، فإنه ألف كتابا سماه : « التكملة » ، أو ما إلى أنه كُـلَّ بكتابه كتاب : « العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد . ونظرتُ في أول كتاب البشتى ، فرأيتُه أثبت في صدره الكتب المؤلفة التي استخرج منها كتابه ، فعددها وقال : استخرجت ما وضعته في كتابي من هذه الكتب ، ولعل بعض الناس يبتغى العتقَ بتهجينه والقُدْح فيه : لأنى أسندت ما فيه إلى هؤلاء العلماء من غير سماع ، وإنما إخبارى عنهم إخبارٌ عن صحفهم : ولا يزرى ذلك على من عرف القث من السمين ، وميز بين الصحيح والسقيم ، وقد فعل مثل ذلك أبو تراب صاحب كتاب : « الاعتقاد » ، فإنه روى عن الخليل وأبي عمرو بن العلاء ، والكسائى ، وبينه وبين هؤلاء فقرة ، وكذلك الفتبي : روى عن سيبويه والأصمعى ، وأبي عمرو : وهو لم ير منهم أحداً . »

ثم عقب الأزهرى على قول البشتى هذا ، بقوله ص ١٦ : « قد اعترف البشتى : بأنه لا سماع له في شيء من هذه الكتب ، وأنه نقل ما نقل إلى كتابه من صحفهم ، واعتل : بأنه لا يزرى ذلك بمن عرف القث من السمين . وليس

كما قال ؛ لأنه اعترف : بأنه صَحَفِي ، والصحفي إذا كان رأس ماله صحفاً
قرأها : فإنه يصحّف فيكثر ؛ وذلك : أنه يخبر عن كتب لم يسمع بها ،
ودفاتر لا يدري : أصحح ما كتب فيها أم لا ؟ وإن أكثر ما قرأنا : من
الصحف التي لم تضبط بالنقط الصحيح ، ولم يتول تصحيحها أهلُ المعرفة
لسقيمة ، لا يعتمد عليها إلا جاهل . وأما قوله : ان غيره من المصنفين ، رَوَوْا
في كتبهم عن لم يسمعوا منه ، مثل أبي تراب والقُتَيْبِي ، فليس رواية هذين
الرجلين عن لم يراه ، حجة له : لأنهما وإن كان لم يسمعا من كل من رَوَيَا
عنه ، فقد سمعا من جماعة : من الثقات المأمونين . فأما أبو تراب ...
وأما القُتَيْبِي : فإنه رجل سمع من أبي حاتم السَّجَزِي كتبه ، وسمع من
الرياشي فوائد جمة ، وكانا من المعرفة والإنقان : بحيث يثنى بهما الخناصر ،
وسمع من أبي سعيّد الضرير ، وسمع كتب أبي عُبَيْد ، وسمع من ابن
أخي الأصمى .

وها (أى أبو تراب وابن قتيبة) : من الشهرة وذهاب الصِّيت ،
والتأليف الحسن ؛ بحيث يُغنى لهما عن خطيئة غلط ، ونَبَذِ زَلَّة تقع
في كتبهما ... » .

* * *

٢ — قال أبو الطيب الحلي ؛ المتوفى سنة ٣٥١ هـ : في كتاب : « مراتب
النحويين » ، ص ١٣٧ : « وكان أبو محمد : عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدِّينوري :
أخذ عن أبي حاتم ، والرياشي ، وعبد الرحمن بن أخي الأصمى . وقد أخذ

ابن دريد عن هؤلاء كلهم ، وعن الأَشْثَانَدَانِيَّ : إلا أن ابن قتيبة خاط عليه بحكايات عن الكوفيين ، لم يكن أخذها عن ثقات .

وكان يشرع في أشياء لا يقوم بها : نحو تعرضه لتأليف كتابه في النحو ، وكتابه في تعبير الرؤيا ، وكتابه في معجزات النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، وعيون الأخبار والمعارف ، والشعراء ، ونحو ذلك : مما أزرى به عند العلماء ، وإن كان نفقَ بها عند العامة ومن لا بصيرة له .

وهذا كلام لا نعوّج به ، ولا نهرّج عليه ، لأنه لم يصدر إلا عن عالم : قد أعمى الخقد قلبه الذي في صدره ، وأضله الحسد المستكن في أطواء نفسه ، وجعلت « العصبية » البغيضة على عينه غشاوة : تحجب عنه نور الحق ، وتنطقه بغير الصدق .

وليس أدل على فساد هذا الرأي ، وانتكاس هذا الحكم ، من أن ابن قتيبة ظل ناقصاً بكتبه عند ذوى البصائر والعقول : من الخاصة والعامة ، وظلت مكانته ملحوظة من العلماء بعيون الإجلال والإكبار ، على اختلاف الأجيال والأعصار ، منذ كان إلى يوم الناس هذا .

ولكنها العصبية المقيتة - قاتلها الله - : ما قاربت شيئاً إلا أفقدته وحطت من قدره ، ولا داخلت إنساناً إلا شانتة ، وغضت من ذكره .

٣ — قال الحاكم : أبو عبد الله : محمد بن عبد الله الضبيّ النيسابوري ، المعروف بابن البيّج (٣٢١ - ٤٠٥) : « كان ابن قتيبة يتعاطى التقدم في (م ٤ - مقدمة مشكل القرآن)

العلوم ، ولم يرضه أهل علم متنها ، وإنما الإمام المقبول عند الكل : أبو عبيد .

وهذا كلام يقطر حقداً وعصبية وحسداً .

وقد ألهبت نار الحسد الموقدة عقل الحاكم ، واطلعت على فواده :
فهذى هذيان المحموم ، وهمز ابن قتيبة ولمزه بقوله : « أجمعت الأمة على أن
القتيبي كذاب » !!!

وقد نقل هذه الكلمة الجائزة الفاجرة ، الحافظ الذهبي في ميزان
الاعتدال ٧٧/٢ ؛ وعقب عليها بقوله : « هذه مجازفة قبيحة وكلام من لم
يخف الله » .

ونقلها مرة أخرى ، وقال في إثرها : « هذا بني وتخرص ؛ بل قال
الخطيب : هو ثقة » ؛ وعقب عليها مرة ثالثة فقال : « ما علمت أحداً اتهم
القتيبي في نقله ، مع أن الخطيب : قد وثقه ؛ وما أعلم الأمة أجمعت إلا على
كذب الدجال ومسيلة » .

٤ — وقال الحافظ السلفي أبو طاهر : أحمد بن محمد الأصبهاني
الجرواني ، المتوفى سنة ٥٧٦ هـ : « كان ابن قتيبة من الثقات وأهل السنة ؛
ولكن الحاكم بضده : من أجل المذهب » . وقد فسرت كلمة « المذهب »
في قول السلفي هذا ، بتفسيرين : فقال الصلاح الملائي : إن السلفي أراد
بالمذهب ما نقل عن البيهقي والدارقطني : من أن ابن قتيبة كان كرامياً يميل
إلى التشبيه ، منحرفاً عن العترة .

ثم قال العلأى : « وهذا لا يصح عنه ، وليس فى كلامه ما يدل عليه ؛ ولكنه جار على طريقة أهل الحديث : فى عدم التأويل » .

وقال الحافظ ابن حجر شهاب الدين أحمد بن على المتوفى سنة ٨٥٢ فى لسان الميزان ٣/ ٨ : « الذى يظهر لى أن مراد السكفى بالمذهب : النصب ؛ فإن فى ابن قتبية انحرافاً عن أهل البيت ، والحاكم على ضد من ذلك . وإلا : فاعتقدها مما - فيما يتعلق بالصفات - واحد » .

٥ - قال الدارقطنى أبو الحسن : على بن عمر بن أحمد بن مهدى (٣٠٦ - ٣٨٥) : « كان ابن قتبية : يميل إلى التشبيه ، منحرفاً عن العروة . وكلامه يدل عليه » .

٦ - قال البيهقى أبو بكر : أحمد بن الحسين (٣٨٤ - ٤٥٨) : « كان ابن قتبية : يرى رأى السكرامية » .

٧ - قال ابن تفرى بردى فى النجوم الزاهرة ٣/ ٧٥ - بعد أن نقل كلام الدارقطنى والبيهقى - : « وكان ابن قتبية : خبيث اللسان ، يقع فى حق كبار العلماء » .

٨ - قال ابن النديم أبو الفرج : محمد بن إسحاق : « كان ابن قتبية : صادقاً فيما يرويه ، عالماً باللغة والنحو ؛ وكتبه مرغوب فيها » .

٩ - قال مسلم بن قاسم :

« كان ابن قتيبة : لغويا كثير التأليف ، عالما بالتصنيف ، صدوقا ، من أهل السنة » .

١٠ — قال الخطيب البغدادي (٣٩٢ — ٤٦٣) في تاريخ بغداد : « هو صاحب التصانيف المشهورة ، والكتب المعروفة ؛ وكان ثقة ، دينا ، فاضلا » .

وقال عنه في كتاب « المتفق والمفترق » : « شهرته ظاهرة في العلم ، ومحله من الأدب لا يحتر » .

١١ — قال نَفْطَوَيْه أبو عبد الله : إبراهيم بن محمد بن عرفة (٢٤٤ — ٣٢٣) : « كان ابن قتيبة : إذا خلا في بيته وعمل شيئا - : جوّده ؛ وما أعلمه حكى شيئا في اللغة ، إلا : صدق فيه » .

١٢ — قال ابن حزم أبو محمد : علي بن أحمد بن سعيد (٣٨٤ — ٤٥٦) : « كان ابن قتيبة : ثقة في دينه وعلمه » .

١٣ — قال إمام الحرّين أبو المعالي : عبد الملك بن عبد الله الجويني . (٤١٩ — ٤٧٨) : « ابن قتيبة : هَجَامٌ وَلُوجٌ فيما لا يحسنه » . وقد نقل ابن حجر هذه هذه السكامة في لسان الميزان ، ثم علق عليها بقوله : « كأنه يريد كلامه في الكلام » .

١٤ — قال الحافظ الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان (٦٧٣ — ٧٤٨) في ميزان الاعتدال ٧٧/٢ : « أبو محمد : صاحب التصانيف ، صدوق ، قليل .

الرواية « ؛ وقال في تذكرة الحفاظ ١٨٧/٢ : « ابن قتيبة : من أوعية العلم ؛ لكنه قليل العمل في الحديث » .

١٥ — قال ابن الجوزي أبو الفرج : عبد الرحمن بن علي ، المتوفى سنة ٥٩٧٠ ، عنه في المنتظم ١٠٢/٥ : « وكان : عالماً ثقة ديناً فاضلاً ، وله التصانيف المشهورة » .

١٦ — قال الحافظ ابن كثير إسماعيل بن عمر ، المتوفى سنة ٧٧٤ ، في البداية والنهاية ٨/١١ ، ٥٧ : « ابن قتيبة النحوي اللغوي : صاحب المصنفات الكثيرة ، البديعة المفيدة ، المحتوبة على علوم حجة نافعة ؛ أحد العلماء والأدباء ، والحفاظ الأذكياء ؛ كان : ثقة نبيلاً » .

١٧ — قال أبو بكر بن حريذ (٢٢٣ — ٢٢١) وقد سئل عن ابن قتيبة ، فقال : « ربوة بين جبلين » ، يريد : أن ذكره قد خمل بنباهة ثعلب والبرد ، كما قال الجرجاني .

١٨ — أما ابن تيمية تقي الدين : أحمد بن عبد الحلیم ، المتوفى سنة ٧٢٨ فقد ذكر في تفسير سورة الإخلاص ص ١٢١ : أن الإمام أحمد بن حنبل يذهب الى أن الراسخين في العلم يعلمون التأويل الصحيح للمتشابه . ثم عقب على ذلك بقوله : « وهذا القول اختيار كثير من أهل السنة ، منهم : ابن قتيبة ، وأبو سليمان الدمشقي وغيرهما . وابن قتيبة من المنتسبين إلى أحمد وإسحاق بن راهويه ، والمنتصرين لمذاهب السنة المشهورة ، وله في ذلك مصنفات متعددة ، قال فيه صاحب « التحديث بمناب أهل الحديث » :

وهو أحد أعلام الأئمة والعلماء الفضلاء ، أجودهم تصنيفاً ، وأحسنهم ترصيفاً ؛ له زهاء ثلاثمائة مصنف . وكان يميل إلى مذهب أحمد وإسحاق ؛ وكان معاصراً لإبراهيم الحارثي ، ومحمد بن نصر المروزي ؛ وكان أهل المغرب : يعظمونه ، ويقولون : من استجاز الواقعة في ابن قتيبة يتهم بالزندقة ! ويقولون : كل بيت ليس فيه شيء من تصنيفه لا خير فيه . ويقال هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة ؛ فإنه خطيب السنة ، كما أن الجاحظ خطيب المعتزلة .

١٩ — وقال ابن خلكان أبو العباس : أحمد بن محمد (٦٠٨ — ٦٨١) عنه في وفيات الأعيان ٢/ ٢٤٦ :

« كان : فاضلاً ثقة ؛ وتصانيفه كلها مفيدة ... » .

تلك هي آراء العلماء الأقدمين في ابن قتيبة : أوردناها كما رأيناها ؛ ويعنيها هنا : أن نقبين وجه الحق فيما قرّف به من تهم ؛ وعُصِّ به : من مثالب .

وسبيلنا إلى ذلك : أن نوازن بين ما قالوه عنه ، وما قاله غيرهم ، وما قاله في كتبه — موازنة دقيقة ، قوامها العدل الخالص من شوائب الهوى ، والإنصاف الباسل الذي لا يبالى : على من وجبت الحجة ، وحنّت كلمة الخطأ والضلال .

فإن كان ما قالوه حقاً : أيدناه بالثلث والشواهد التي تجعل القلوب إليه صاغية ، والمعتول جانحة جنوحاً لا خيار فيه .

وإن كان ما ذهبوا إليه مَئِينًا : أبدينا عواره ، وهتكنا أستاره ؛ بما
نورده ؛ من الأدلة الناصعة ، والبراهين القاطعة ؛ ثم قدمنا إليهم ، فكشفنا
عن أسباب ضعفهم عليه ، وكراهيتهم له ؛ وبيننا أسرار اختلافهم عليه ،
ومنازعة وقيةتهم فيه .

* * *

لقد اتهمه « الحليم » : بأنه كذاب قد أجمعت الأمة على كذبه ؛ ولم يؤيد
دعواه بمثال واحد بل : لجأ إلى التهويل والتهويز بإجماع الأمة . وتلك
أكذوبة بقاء : لم تجد مصداقاً أو مظاهراً ولا تستحق أن نعرض لها بالتهوين .
وحسبها نقد الذهبي لها ؛ وحسبنا إجماع الأزهرى ، والخطيب البغدادي ،
ومسلم بن قاسم ، والحافظ السافى ، وابن النديم ، ونفطويه ، وابن حزم ،
وابن كثير ، وابن الجوزى ، وابن خلكان - حسبنا إجماع هؤلاء الأعلام :
على أن ابن قتيبة كان ثقة في قوله ، صادقاً في روايته ، مُصَدِّقاً .

وقد اتهمه الدارقطنى : بأنه كان يميل إلى التشبيه ، منحرفاً عن العترة .

واتهمه البيهقى : بأنه كان كرامياً .

وليس بين هذين الاتهامين من فرق فى المعنى : فكلاهما ينسب إلى
التشبيه ، والانحراف عن آل البيت رضوان الله عليهم ؛ فإن الكرامية (الذين
تابعوا محمد بن كرام على رأيه) كانوا يذهبون إلى التجسيم والتشبيه ؛
ويتهمون علياً فى صبره على ما جرى مع عثمان ، وسكوته عنه ويرون

تصويب معاوية فيما استبد به من الأحكام الشرعية : قتالا على طلب قتلة عثمان ، واستقلالاً ببيت المال .

فهل كان ابن قتيبة يذهب حقاً إلى التشبيه ؟ وهل كان منحرفاً عن آل البيت ؟ أم أن هذا وذاك قد افترى عليه ، ورمى به بغير الحق ؛ كما رُمي بالكذب زوراً وبُهتاناً ؟ .

أما نسبة ابن قتيبة إلى التشبيه والتجسيم : فهي من منكر القول وزوره .

وكيف يصح في الأذهان أن يكون ابن قتيبة من المشبهة ؛ وهو مؤلف كتاب : « الاختلاف في اللفظ ، والرد على الجهمية والمشبهة » ؟ ! .

كيف يكون منهم : وهو القائل في كتابه هذا ص ٢٩ : « فنحن نقول كما قال الله ، وكما قال رسوله ؛ ولا نتجاهل ؛ ولا يحملنا مانحن فيه : من نقي التشبيه ؛ على أن ننكر ما وصف به نفسه ؛ ولكننا لا نقول : كيف البيان ؟ وإن سئلتنا : نقتصر على جملة ما قال ، ونمسك عما لم يقل » ؟ ! .

كيف يكون منهم : وهو الذي يقول في ص ٣٢ : « فنحن نؤمن بالنفخ وبالروح ؛ ولا نقول : كيف ذلك ؟ لأن الواجب علينا أن ننتهي في صفات الله إلى حيث انتهى في صفته ، أوحى حيث انتهى رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ولا نزيل لللفظ عما تعرفه العرب واتضه عليه ؛ ونمسك عما سوى ذلك » ؟ ! .

كيف يكون منهم : وهو الذي يقول في ص ٤٥ : « ... ولما رأى قوم من الناس إفراط هؤلاء في النقي : عارضوهم بالإفراط في التمثيل ؛ فقالوا :

بالتشبيه المحض ، وبالأقطار والحدود ... وكلا الفريقين غلط ، وقد جعل الله التوسط : منزلة العدل ؛ ونهى عن الغلو فيما دون صفاته : من أمر ديننا ؛ فضلا عن صفاته ، ووضع عنا أن نفكر فيه : كيف كان ؟ وكيف قدر ؟ وكيف خلق ؟ ولم يكلفنا ما لم يحمله في تركيدنا ووسعنا . وعدل القول في هذه الأخبار : أن نؤمن بما صح منها بنقل الثقات لها ، فنؤمن : بالرؤية والتجلى ، وأنه يعجب ، وينزل إلى السماء ، وأنه على العرش استوى ، وبالنفس واليدين من غير أن نقول في ذلك بكيفية أو بجدٍ أو أن نقيس على ما جاء ما لم يأت . فترجو : أن نكون في ذلك القول والعقد ، على سبيل النجاة غداً ، إن شاء الله تعالى ؟ ١ .

أقول هذا القول السوى ، من يقول بالتشبيه والتجسيم ؟ : إن ابن قتيبة قد نهج في كلامه هذا ، نهج النمط الأوسط من السلف الصالح ، وسلك سبيلهم متبعاً غير مبتدع .

قال أبو الفتح : محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (٤٧٩ — ٤٨٨) في كتابه : « الملل والنحل » — : « وأما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ، ولم يهذبنوا للتشبيه ، فمنهم : أحمد بن حنبل ، وسفيان الثوري ، ومالك بن أنس ، إذ قال : الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . »

فهو بين قول مالك بن أنس وبين قول ابن قتيبة ، فرق ؟ : كلا ،

ولكن البيهقي والدارقطني قد كذبا عليه حين رمياه بالتشبيه ، كما كذب الحاكم في رميهِ بالكذب .

* * *

وأما القول : بأن ابن قتيبة كان منحرفا عن آل البيت ؛ فمحض افتراء عليه ، كسابقه .

وقد لجأ قارفوه بهذه التهمة الخطيرة ، إلى إلقاء الحكم إلقاء : دون تثبيته في النفوس بالمثل ؛ شأنهم في كل ما رموه به : من تهمة ؛ وألصقوا به : من وصمات .

ولكن من دفع هذه التهمة عنه دين أيّين : لا يحوج إلى إعمال فكر ، أو إجابة رويّة ، أو كد خاطر ؛ ولكنه يحتاج إلى قليل : من الأناة ؛ في قراءة قوله الذي أفصح به عن رأيه في علي كرم الله وجهه ، وأعرب به عن تقديره لمسكارمه ومفاخره ، ومكانه السامي من رسول الله ودين الله ، ومكانته من الفضل والبأس ، والعلم والدين جميعاً .

قال ابن قتيبة في كتاب « الاختلاف في اللفظ والردّ على الجهمية والمشبّهة » ص ٤٧ : « ... وقد رأيت هؤلاء أيضاً - حين رأوا غلو الرافضة : في حب عليّ ، وتقديمه على من قدّمه رسول الله « صلى الله عليه وسلم » - وصحابته عليه ؛ وادعائهم له شراكة النبي صلى الله عليه وسلم : في نبوته : وعلم الغيب للأئمة : من ولده ؛ وتلك الأقاويل والأمور السريّة : التي جمعت

إلى الكذب والكفر إفراط الجهل والغباوة ؛ ورأوا شتمهم خيار السلف ،
وبُغضهم وتبرؤهم منهم - : قابلوا ذلك أيضا ، بالغلو : في تأخير عليّ كرم الله
وجهه ، وبخيه حقه ؛ ولحنوا في القول ؛ وإن لم يصرحوا إلى ظلمه ، واعتدوا
عليه : بسفك الدماء بغير حق ، ونسبوه إلى الملائة على قتل عثمان رضي الله
عنه ؛ وأخرجوه بجهلهم من أئمة الهدى إلى جملة أئمة الفتن ، ولم يوجبوا
له اسم الخلافة : لاختلاف الناس عليه ؛ وأوجبوا ليزيد بن معاوية : لإجماع
الناس عليه ؛ واتهموا من ذكره بخير . وتحامى كثير من المحدثين : أن
يحدثوا بفضائله كرم الله وجهه أو يظهر ما يجب له : وكل تلك الأحاديث
لها مخارج صحاح . وجعلوا ابنه الحسين عليه السلام خارجيا ، شاقا لعصا
لعصا المسلمين ، حلال الدم ؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم : « من خرج
على أمّتي : وهم جميع ؛ فاقتلوه كائنا من كان » . وسووا بينه - : في الفضل - .
وبين أهل الشورى : لأن عمر لو تبين له فضله لقدّمه عليهم ، ولم يجعل
الأمر شورى بينهم . وأهملوا من ذكره ، أو روى حديثا من فضائله ؛
حتى تحامى كثير من المحدثين . أن يتحدثوا بها . وعُتوا بجمع فضائل عمرو
بن العاص ، ومعاوية : كأنهم لا يريدونهما بذلك ، وإنما يريدونه . فإن قال
قاتل . « أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم : عليّ ، وأبو سبيطه : الحسن
والحسين ، وأصحاب الكساء : عليّ وفاطمة والحسن والحسين » - تمعّرت
الوجوه ، وتكثر العيون ، وطرّت حسائك الصدور . وإن ذكر ذكر
قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من كنت مولاه فعلىّ موه » ؛ و : « أنت
منى بمنزلة هارون من موسى » ؛ وأشباه هذا - : التمسوا تلك الأحاديث

المُخَارِجَ لِيَنْتَقِصُوهُ وَيَبْخَسُوهُ حَتَّى: بَغْضًا مِنْهُمْ لِلرَّافِضَةِ وَإِلْزَامًا لِعَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ — بِسَبِّهِمْ — مَا لَا يَلْزِمُهُ . وَهَذَا هُوَ الْجَهْلُ بَعِيْدُهُ .

وَالسَّلَامَةُ لَكَ : أَنْ لَا تَهْلِكَ بِمُحِبَّتِهِ ، وَلَا تَهْلِكَ بِبَغْضَتِهِ ؛ وَأَنْ لَا تَحْمِلَ عَلَيْهِ ضَغْنًا : بِجَنَائِيَةِ غَيْرِهِ . فَإِنْ أَنْتَ فَعَلْتَ : فَأَنْتَ جَاهِلٌ مُفْرِطٌ فِي بَغْضِهِ .

وَأَنْ تَعْرِفَ لَهُ مَكَانَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بِالتَّوْبَةِ وَالْأَخْوَةِ وَالصَّبْرِ ، وَالصَّبْرُ فِي مُجَاهَدَةِ أَعْدَائِهِ ، وَبَذْلُ مُهْجَتِهِ فِي الْحُرُوبِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، مَعَ مَكَانِهِ : فِي الْعِلْمِ وَالْدِّينِ ، وَالْبَأْسِ وَالْفَضْلِ — مِنْ غَيْرِ أَنْ تَتَجَاوَزَ بِهِ الْمَوْضِعَ الَّذِي وَضَعَهُ بِهِ خِيَارُ السَّلَفِ : لِمَا تَسْمَعُهُ مِنْ كَثِيرٍ : مِنْ فَضَائِلِهِ؛ فَهَمْ كَانُوا أَعْلَمَ بِهِ وَبَعِيْرُهُ ، وَلَأنَّ مَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ هُوَ : لِلْعَيَانِ الَّذِي لَا يُشْكُ فِيهِ . وَالْأَحَادِيثُ الْمُنْقُولَةُ قَدْ يَدْخُلُهَا تَحْرِيفٌ وَشَوْبٌ .

وَلَوْ كَانَ إِكْرَامُكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، هُوَ الَّذِي دَعَاكَ إِلَى مَحَبَّةٍ مِنْ نَازِعٍ عَلِيًّا وَحَارِبَةٍ وَلَعَنَهُ — : إِذْ صَحِبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَدَمَهُ ، وَكَذَلِكَ قَدْ سَلَكَتَ فِي ذَلِكَ سَبِيلَ الْمُسْتَسْلِمِ — : لَأَنْتَ بِذَلِكَ فِي عِلَى عَلَيْهِ السَّلَامِ ، أَوَّلَى : لِسَابِقَتِهِ ، وَفَضْلِهِ ، وَخَاصِّيَّتِهِ ، وَقَرَابَتِهِ ؛ وَالِدَنَاوَةِ الَّتِي جَعَلَهَا اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : عِنْدَ الْمُبَآهَلَةِ ؛ حِينَ قَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ﴾ : فَدَعَا حَسَنًا وَحُسَيْنًا ؛ ﴿ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ ﴾ : فَدَعَا فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ ؛ ﴿ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ﴾ : فَدَعَا عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ تَبْصِيرَهُ : بَصَّرَهُ ؛ وَمَنْ أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ : حَيَّرَهُ .

هذا كلام ابن قتيبة الذى صور فيه — فى قوة ووضوح — مشاعره نحو
على وآله ؛ وعبر عما يجنبه فؤاده : من محبتهم وإجلالهم ، وحسن الرأى ،
والاعتقاد فيهم .

فهل يصدر هذا الكلام المذب عن يمتويهم ، ويسى الظن بهم ؟ وهل
يدخل فى نطاق المقول : أن يقوله من يثم بالانحراف عنهم ؟ .

ولكن القوم أصموا آذانهم عنه ، وأطبقوا أعينهم دونه ، واستغشوا
ثياب العصبية الصفيقة ، ثم ذهبوا : يناقلون رميه ببعض آل البيت ، والميل
عن مؤدثهم ، لموجة يجدون مسما فى نفوسهم عليه .

ولعل من أسباب هذه الموجدة ، تلك الرواية التى رواها عن الشعبي
فى « تأويل مشكل القرآن » ، حيث يقول فى ص ١٨١ : « وكان أصحاب
رسول الله صلى الله عليه ورضى عنهم — وهم مصابيح الأرض ، وقادة
الأنام ، ومُنْتَهَى العلم . — إنما يقرأ الرجل منهم السورتين والثلاث والأربع
والبيض والشاطر من القرآن ، إلا نقرأ منهم : وقفهم الله لجمعه ، وسهل عليهم
حفظه . قال الشعبي : توفى أبو بكر ، وعمر ، وعلى — رحمهم الله — ولم
يجمعوا القرآن . وقال : لم يخطمه أحد من الخلفاء غير عثمان . ورؤى عن
شريك ، عن إسماعيل بن أبي خالد : أنه قال : سمعت الشعبي تحلف بالله عز
وجل : لقد دخل على حفرتة وما حفظ القرآن . »

ولقد أثارَت هذه الرواية ثائرة أبى الحسين : أحمد بن فارس ، المتوفى
سنة ٣٩٥ ، قال فى كتاب الصحاح ص ١٧٠ : « وابن قتيبة يطلق إطلاقاً .

منكرة ، ويروى أشياء شنعاء ؛ كالذى رواه عن الشعبي : أن أبا بكر وعمر
وعليا توفوا ، ولم يجمعوا القرآن ؛ وأن عليا دخل حفرته ، وما حفظ القرآن
وهذا كلام شنع جداً ... » .

* * *

أما قول إمام الحرمين : « إن ابن قتيبة هجّام ولوج فيما لا يحسنه » ؛
فإنه يريد : كلامه في الكلام ، كما قال ابن حجر . ولابن قتيبة كلام عن
هذا العلم ، لا يروق في نظر رجل انغمس فيه من فرقه إلى قدمه ، وقضى حياته
في تحقيق مسائله ؛ كإمام الحرمين . فقد قال في كتاب « الاختلاف في اللفظ ،
والرد على الجهمية والمشبّهة » ص ١٢ — أثناء رده على ما تأولته الجهمية — :
« ولم أعد في أكثر الرد عليهم طريق اللغة ؛ فأما الكلام فليس من
شأننا ؛ ولا أرى أكثر من هلك إلا به . وبجمل الدين على ما يوجب
القياس ... » .

وقال في كتاب : « تأويل مختلف الحديث » ص ١٥ : « وقد تدرت
مقالة أهل الكلام ؛ فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون ، ويميّون الناس
بما يأتون ، ويبصرون القذى في عيون الناس ويميئونهم تطرف على الأجذاع ،
ويتهمون غيرهم في النقل ولا يتهمون آراءهم في التأويل . ومعاني الكتاب
والحديث ، وما أودعاه — : من لطائف الحكمة ، وغرائب اللغة — لا يدرك
بالطرفة والتولّد ، ولا معرض والجوهر ، والكيفية والكميّة والأبديّة . ولو
رددوا المشكل منهما إلى أهل العلم بهما وضع لهم المنهج ، واتسع لهم الخرج ،

ولكن يمنع من ذلك طلب الرياسة ، وحب الأنباع ، واعتقاد الإخوان بالمقالات ؛ والناس أسراب طير يتبع بعضها بعضا ... » . وقال في ص ٧٤ : « وكنت في عنقوان الشباب ، وتطلب الآداب ، أحب أن أعلق من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه بسهم ، فربما حضرت بعض مجالسهم — وأنا مفتر بهم ، طامع أن أضدّر عنه بفائدة ، أو كلمة تدل على خير ، أو تهدي لرشد . — فأرى من حرّأتهم على الله ، تبارك وتعالى ، وقلة توقيهم ، وحلمهم أنفسهم على العظام — لطرده القياس ، أو لثلا يقع انقطاع — ما أرحم معه خاسراً نادماً » .



وأما قول ابن تفرى بردى : « كان ابن قتيبة خيث اللسان ، يقع في حق كبار العلماء ؛ فغير صحيح أيضاً . »

والذى دفعه إلى هذا القول أنه من الأحناف أصحاب الرأى والقياس . وقد عرض لهم ابن قتيبة بالنقد ، في كتاب « تأويل مختلف الحديث » وقال في ص ٦٢ : ثم نصير إلى أصحاب الرأى ، فنجدهم أيضاً يختلفون ويقيسون ، ثم يدعون القياس ويستحسنون ؛ ويقولون بالشئ ويحكمون به ثم يرجعون .

ثم ضرب لذلك أمثلة خطيرة رجع فيها أبو حنيفة عن رأيه ؛ رواها عن أستاذه إسحاق ابن راهويه ، الذى قال عنه في ص ٦٥ : « ولم أر أحداً ألمج بذكر أصحاب الرأى وتنقصهم ، والبهت على قبيح أفاويلهم ، والتنبيه

عليها — من إسحاق بن إبراهيم الحنظلي ، المعروف بابن راهويه . وكان يقول : نذوا كتاب الله تعالى وسنن رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ولزموا القياس . »

وعدد ابن قتيبة من ذلك ، مسائل كثيرة رواها عنه ؛ كما روى مسائل أخرى تدل — كما يقول ابن راهويه — : « على تحكم أبي حنيفة في الدين ، ومخالفة كتاب الله » . ثم قال ابن قتيبة في ص ٧٠ : « وكيف يطرد لك القياس في فروع لا تتفق أصولها والفرع تابع الأصل ؟ ! وكيف يقع في القياس : أن يقطع سارق عشرة دراهم ويمسك عن غاصب مائة ألف درهم ؛ ويجلد قاذف الحر ، ويعفى عن قاذف العبد العفيف ؛ وتُستبرأ أرحام الإماء بمحضة ، ورحم الحرة بثلاث حبضات ؛ ويحصن الرجل بالعجوز الشوهاء السوداء ، ولا يحصن بمائة أمة حسناء ؛ ويُوجب على الحائض قضاء الصوم ، ولا يوجب عليها قضاء الصلاة ؛ ويجلد في القذف بالزنا أكثر من الجلد في القذف بالكفر ؛ ويقطع في القتل بشهادين ، ولا يقطع في الزنا بأقل من أربعة ١٩ » .

فأنت ترى : أن ابن قتيبة لم يكن خبيث اللسان في حديثه عن أهل الرأي ، وإنما عرض لهم بالنقد العلمي في بعض ما ذهبوا إليه ، وروى عن أساتذته ما تدعو ضرورة البحث إلى روايته ، وإذا تحدث عن رأيه : تحدث بأسلوب مهذب مؤدب ، لا يضح وصفه بالخبث ، ولا نفعه بالوقيمة .

وقد خدعت كلمة ابن تغرى بردى هذه ، الأستاذ محمد كرد على ،

وجعلته يقول مقدمته لكتاب الاشرية ص ٤ :

« اشتهد ابن قتيبة على مخالفيه ولا سيما المعتزلة منهم وفي كتابه تأويل مختلف الحديث : طعن مبرّح في الجاحظ ، قال فيه : إنه أكذب الأمة ، وأوضعهم للحديث ، وأنصرهم لباطل ، فتجلى حسده تجلياً ظاهراً .

هجن ابن قتيبة الجاحظ وكفره ، ورماه بأعظم كبيرة وهى الكذب ؛ وسجل عليه أنه أكذب واحد فى الأمة ؛ لأنه كتب فى أشياء تنفع فى تربية العقول فى الدنيا ، كما كتب كل ما ينفع فى الدين ؛ وابتدع أدباً يسلى ويعلم .

فهل من العدل أن يرمى بوضع الحديث وتشدده وتشدد أهل مذهبه - :

فى تحمى السليم من السقيم فى الحديث . - لا يحتاج إلى دليل ؟ ! » .

إن ابن قتيبة لم يظلم الجاحظ ، ولم يهجنه حسداً من عند نفسه ؛ ولم يتهمه بالكذب ، لما زعمه الأستاذ ، بل أنصفه ، وقال فيه ماله ، كاملاً غير منقوص ؛ ونقده فى بعض رأيه بما لا يسع الملم الحقيقى إلا نقده وردّه على قائله : كائناً من كان .

وإليك نص كلام ابن قتيبة فى كتابه تأويل مختلف الحديث ، قال فى ص ٨١ : « ثم نصير إلى الجاحظ وهو آخر المتكلمين والمعاير على المتقدمين ، وأحسنهم للحجة استنارة ، وأشدّهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم ، وتصغير العظيم حتى يصغر ؛ ويبلغ به الاقتدار أن يعمل الشئ ونقيضه ؛ ونجده (م ه - مقدمة مشكل القرآن)

يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث
وشراب النبتذ .

ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ؛ كذكره كبد
الحوت وقرن الشيطان ؛ وذكر الحجر الأسود ، وأنه كان أبيض فسوده
المشركون ، وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا وبذكر الصحيفة
التي كان فيها المنزل في الرضاع تحت سرير عائشة فأكلتها الشاة . وأشياء
من أحاديث أهل الكتاب ، في تنادم الديك والغراب ، ودفن الهدهد أمه
في رأسه ، وتسبيح الصفدع ، وطوق الحمامة ، وأشباه هذا مما سنذكره فيما
بعد ، إن شاء الله . وهو - مع هذا - من أكذب الأئمة ، وأوضعهم لحديث ،
وأنصرهم لباطل .

هذا هو رأى ابن قتيبة في الجاحظ ، وهو يلقف ما يقول عنه الأستاذ
محمد كرد علي .

ولست أدري : كيف استباح لنفسه الطعن في ابن قتيبة بذلك الأسلوب
التهكمي مع أنه لم يستطع أن ينقد مما قاله حرفاً واحداً ؟

أترأه كان ينتظر منه تقرّظ الجاحظ لاستهزائه بحديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم ؟

ومن دلائل وضع الجاحظ للأحاديث ، ما حدث به أبو العيناء بعد
توبته عن وضعها ؛ قال أنا والجاحظ وضعنا حديث فدك ، وأدخلناه على

الشيوع ببغداد ، فقبلوه إلا ابن أبي شيبة العلوي ، فإنه قال : لا يشبه هذا الحديث أوله ، وأبي أن يقبله .

وكذلك وضع الجاحظ في كلام العرب ما ليس منه ، ونسب ذلك إلى أئمة اللغة ؛ وقد سجل عليه ذلك أبو العباس : ثعلب ، إذ يقول : « اعزبوا عن ذكر الجاحظ : فإنه غير ثقة ولا مأمون » .

ولا مرأى في أن الجاحظ قد صنع كثيراً من نصوص الأدب ؛ وعزاها إلى غيره من العرب تارة ، والأعاجم أخرى .

وهذه كلها دلائل تدل على أن ابن قتيبة لم يصف أستاذه الجاحظ إلا بما عرفه من خلاله ونوازعه ؛ ولم يحاول : « أن يسحب عليه ذيل النسيان » ؛ كما يقول الأستاذ محمد كرد علي رحمه الله .

وأعجب مما سبق ، قول الأستاذ محمد كرد علي عن ابن قتيبة :

« ورمى أيضاً أبا الهذيل العلاف بما ليس فيه ؛ ووصفه بأنه - كذاب أفك ، وطن فيه أشنع طعن .

وكذلك كان حظ ثمامة بن الأشتر من - وهما من الأئمة - ورمى هذا برقة الدين ، وتنقص الإسلام ، والاستهزاء به .

وطعن في النظام أيضاً وهو الذي رد على الملحدين والدهريين ، شطراً كبيراً من عمره .

ولست أدري : من أين علم الأستاذ أن ابن قتيبة افترى على أبي الهذيل الكذب ووصفه بما ليس فيه .

هل قرأت كتب « التوحيد » فألفى فيها ما يكذبه .

أم هل قرأت كتب « التراجم » فوجد فيها نكأة له في تكذيبه ؟

إنه لم يقرأ شيئاً من هذه ولا تلك ! وآية ذلك أن وصف ابن قتيبة له بالبخل ورقة الدين ؛ مسطور فيها جميعاً .

وقد كرر الجاحظ في كتبه وصفه له بالبخل ، وقال عنه : « إنه كان أبخل الناس » . ووصفه كذلك بأوصاف كثيرة في طليعتها النفاق !

واتفق المترجمون له والباحثون في مذهبه الكلامي علي أن دينه كان من بيت العنكبوت :

قال الخطيب البغدادي في ترجمته ٣/٣٦٦ : « وكان أبو الهذيل خبيث القول ، فارق إجماع المسلمين ، ورد نص كتاب الله إذ زعم أن أهل الجنة تنقطع حرركاتهم فيها حتى لا ينطقوا بكلمة ولا يتكلموا بكلمة ؛ فلزمه القول بانقطاع نعيم الجنة عنهم ، والله يقول : ﴿ أَكُلُّهَا دَائِمٌ ﴾ . وجحد صفات الله التي وصف بها نفسه . وزعم أن علم الله هو الله ، وقدرة الله هي الله ! فجعل الله علماً وقدرة ، تعالى الله عما وصفه به علواً كبيراً » .

ومذهب أبي الهذيل - : في انتهاء حركات أهل الجنة والنار . - قريب من مذهب جهم بن صفوان الذي زعم أن الجنة والنار تغنيان وتبيدان ،

ويبقى من فيهما ، حتى لا يبقى إلا الله وحده ، كما كان وحده لا شيء معه ، بل إن مذهبه شر من مذهب جهنم - كما يقول البغدادي في « الفرق بين الفرق » - : « لأن جهنم - وإن قال بفناء الجنة والنار - فقد قال : إن الله قادر بعد فناءهما ، أن يخلق غيرهما » ؛ وأبو الهذيل زعم أن ربه لا يقدر بعد انتهاء الحركات - : على تحريك ساكن ، أو إحياء ميت ، أو إحداث شيء » . ويقول البغدادي عنه أيضاً في ص ٧٢ : « وفضائحه ترى ، تكفره فيها سائر فرق الأمة : من أصحابه في الاعتزال ، ومن غيرهم » .

أفبعد ذلك ، يصح اتهام ابن قتيبة بأنه وصف أبا الهذيل بما ليس فيه ، طعنًا بغير الحق وتشنيعاً ؟ !

وكما كان ابن قتيبة مذهباً صادقاً في حكمه على أبي الهذيل العلاف - فإنه كان كذلك صادقاً منصفاً في حكمه على « تمامة بن الأشرس » بأنه كان يتنقص الإسلام ورسول الإسلام ، ويحتمد عليهما حدثاً غليظاً منكراً .

ولا أريد أن أقول من حصائد لسانه ، ونزوات بنانه ؛ في ذلك شيئاً . وحسبي أن أورد بعض ما قاله البغدادي عنه في ص ١٠٢ ، ٢٠٤ : « وكان زعيم القدريّة في زمان المأمون والمعتصم والوثق ؛ وانفرد عن سائر أسلافه المعتزلة ، ببدعتين أكفرته الأمة كلها فيهما » .

وأما طعن ابن قتيبة في « النظام » فشاهده من الصدق والأمانة ، قول البغدادي في الفرق بين الفرق ص ٨٠ « وجميع فرق الأمة - : من فريق

الرأى والحديث ، مع الخوارج والشيعة والنَّجَارِيَّة ، وأكثر المعتزلة . —
متفقون على تكفير النظام » .

ويتضح من ذلك كله : أن ابن قتيبة لم يغال « في طعنه بما لم يناسب عظمة
علمه وأخلاقه » ؛ ويتبين أنه إنما اتهم فيه النهج الذى رسمه لنفسه ؛ وهو أن
يُضْحِر بالحق فيما ارتأى ؛ لا يمنح لظلم ، ولا يتبع الهوى .

* * *

وكان من أشد العلماء عداوة لابن قتيبة : أبو بكر: محمد بن القاسم الأنبارى

(٢٧١ — ٣٢٨) ، تلميذ أبى العباس : ثعلب ؛ ورائد تلك الطائفة التى رمته
بالكذب ، وعداوة العترة ، والذهاب إلى التشبيه والتجسيم . فقد كان ابن
الأنبارى أستاذاً للدارقطنى ؛ وكان الدارقطنى أستاذاً للحاكم ؛ وكان
الحاكم أستاذاً للبيهقى .

وقد نسبته إلى الغفلة والغباوة ، وقلة المعرفة ؛ وردّ عليه قريباً من ربع
مألفه من مشكل القرآن ؛ كما حدث الأزهري . وعمل « رسالة المشكل »
التي قصرها على نقده ونقد أستاذه أبى حاتم السجستاني ، وأملى كتاب
« المشكل » فى سنين كثيرة ، ولم يبلغ فيه إلا إلى سورة طه .

ولم يصل إلينا من كتبه التى تناولها فيها بالنقد ، غير كتاب : « الأضداد » —
الذى نقد فيه بعض ما ذهب إليه فى كتابيه : « إصلاح الغلط » ، و« تأويل
مشكل القرآن » .

وقد سلك في نقده له غير سبيل الحق ، وسجل عليه العلماء للذين قرأوا
كتبه — : أنه كان يردّ عليه أقواله كلها ، ويتعسف في طعنه ، ويحتج لردّه
بأوابد اللغة وشواذّها .

قال الشريف المرتضى (٣٥٥ — ٤٣٦) في كتابه : « غرر الفوائد
ودرر القلائد » المشهور بالألماني ١٣/٢ : « وجدت أبا بكر : محمد بن القاسم
الأنباري ، يطعن على جواب من أجاب في قوله تعالى : ﴿ وَبَلَغْتَ الْقُلُوبَ
الْحَنَاجِرَ ﴾ ، بأن معناه : كادت تبلغ الحناجر . ويقول : كاد لا تضمر ، ولا بد
من أن يكون منطوقا بها ، ولو جاز ضميرها لجاز : « قام عبد الله » ، بمعنى :
كاد عبد الله يقوم ، فيكون تأويل « قام عبد الله » : لم يتم عبد الله ، لأن
معنى « كاد عبد الله يقوم » : لم يتم .

وهذا الذي ذكره ابن الأنباري غير صحيح . ونظن أن الذي حمله على
الطعن في هذا الوجه ، حكايته له عن ابن قتيبة ؛ لأن من شأنه أن يرد كل
ما يأتي به ابن قتيبة ، وإن تعسف في الطعن عليه !!!

والذي استبعده غير بعيد ؛ لأن « كاد » قد تضمر في مواضع يقتضيها
بعض الكلام وإن لم تكن في صريحه . ألا ترى : أنهم يقولون : أوردت
على فلان : — من العتاب والتوبيخ والتقريع . — مامات عنده ، وخرجت
نفسه ، ولما رأى فلان فلاناً لم يبق فيه روح ، وما أشبه ذلك ومعنى جميع
ما ذكرناه : المقاربة ، ولا بد من إضمار « كاد » فيه ... وإذا كان الأمر
على ما ذكرناه ، لم يمتنع أن يقال : قام فلان ، بمعنى : كاد يقوم ، إذا دلت

الحال على ذلك ، كما يقال : مات ، بمعنى : كاد يموت .

فأما قوله : « فيكون تأويل قوله : قام عبد الله ؛ لم يتم عبد الله » خطأ ؛ لأنه ليس معنى كاد يقوم : أنه لم يتم ؛ كما ظن ؛ بل معناه : أنه قارب القيام ، ودنا منه . فمن قال : قام عبد الله ، وأراد كاد يقوم ، فقد أفاد ما لا يقده : لم يتم . »

ومعلوم : أن هوى المرتضى ليس مع ابن قتيبة ؛ فهو لا يكاد يصرح باسمه ، إلا في معرض النقد والتخطئة . ولكن غلو ابن الأنباري في تحامله على ابن قتيبة ، دفعه إلى أن يقول ذلك ، وأن يقول تعتيباً على ندد آخر : « إن ما ذكره ابن الأنباري لا يقدح في كلام ابن قتيبة » .

وقال ابن تيمية في تفسير سورة الإخلاص ص ١٣٣ : « وأما اللغويون الذين يقولون : إن الراسخين لا يعلمون معنى التشابه ؛ فهم متناقضون في ذلك ؛ فإن هؤلاء كلهم يتكلمون في تفسير كل شيء من القرآن ، ويتوسعون في القول في ذلك ؛ حتى ما من أحد إلا وقد قال في ذلك أقولاً لم يسبق إليها ، وهي خطأ . وابن الأنباري الذي بالغ في نصرة ذلك القول ، هو من أكثر الناس كلاماً في معاني الآي المتشابهات ، يذكر فيها من الأقوال ما لم ينقل عن أحد من السلف ؛ ويحتج لما يقوله في القرآن بالشاذ من اللغة ، وهو قصده بذلك الإنكار على ابن قتيبة . وليس هو بأعلم بمعاني القرآن والحديث ، وأتبع للسنة من ابن قتيبة ، ولا أفقه في ذلك ؛ وإن كان ابن الأنباري من أحفظ الناس للغة . لكن باب فقه النصوص ؛ غير باب حفظ ألفاظ اللغة . »

وترجع عداوة ابن الأنبارى لابن قتيبة إلى أسباب ثلاثة ، تجمعها كلمة واحدة ، وهى « التعصب » .

أولها : أن ابن الأنبارى من نحاة الكوفة المتعصبين ، وابن قتيبة من البصريين ، ولكنه لم يكن متعصبا لمذهبه ، بل مزج بين المذهبين ؛ فتعصب عليه ابن الأنبارى ؛ كما تعصب على معاصره أبى الحسن بن كيسان الكوفى المتوفى سنة ٢٩٦ لأنه مزج بين النحويين ، وكان ميله إلى مذهب البصريين أكثر . قال أبو على الفالى ، تلميذ ابن الأنبارى : « كان أبو بكر بن الأنبارى شديد التعصب على ابن كيسان ، والتقص له ؛ وكان يقول : خاط قلم يضبط مذهب الكوفيين ، ولا مذهب البصريين . وكان يفضل الزجاج عليه » ؛ مع أن أبا بكر بن مجاهد يقول عنه : أبو الحسن بن كيسان أنحى من الشيخين ؛ يعنى : ثعلبا والمبرد .

والسبب الثانى : فى تنقص ابن الأنبارى لابن قتيبة : تلك الرواية التى رواها فى تأويل مشكل القرآن ، عن الشعبي : من أن عليا دخل حفرة وما حفظ القرآن . فقد أحفظته عليه ، كما أحفظت ابن فارس ، والشريف المرتضى .

والسبب الثالث : تأليف ابن قتيبة لكتاب « إصلاح الغلط » . وقد ذكر هذا السبب ابن تيمية ، فى تفسير سورة الإخلاص ص ١٢٣ ؛ حيث يقول : وقد نتم ابن الأنبارى وغيره ، على ابن قتيبة كونه رد على أبى عبيد

أشياء من تفسير غريب الحديث . وابن قتيبة قد اعتذر من ذلك ، وسلك في ذلك مسلك أمثاله من أهل العلم . وهو وأمثاله يصيبون تارة ، ويخطئون أخرى .

إن ابن قتيبة لم يخطئ في فكرة نقده لأبي عبيد ، كما لم يخطئ في فكرة مزجه بين النحويين ؛ فما كان أبو عبيد — على جلاله قدره وسمو مكانته — إلا إنسانا يخطئ ويصيب ، ويؤخذ من كلامه ويرد ؛ وقد أخطأ وعرف معاصروه وغيرهم خطأه ، كإسحاق الموصلي ، وأبي سعيد الضريير وأبي سليمان الخطابي . وما خصّ مذهب الكوفيين بالصواب في كل مسألة من مسائله . وما كان نقد ابن قتيبة لأبي عبيد ، ولا مزجه بين المذهبيين — إلا مظهراً من مظاهر التحرر العقلي الذي فطر عليه ، وجعله دائماً يثنى على كل من آتى بحسن من قول أو فعل ، ويرد الردىء منهما على صاحبه ، غير ناظر إلى شرفه ولا تقدمه . وقد شرح ذلك في غير موضع من كتبه ، فقال في مقدمته لكتاب « الشعراء » ص ٦ : « ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر ، مختاراً له ، سبيل من قلد أو استحسنت باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ؛ بل نظرت بعين العدل على الفريقين ، وأعطيت كلا حظاً ، ووقرت عليه حقه ؛ فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في متخيره ، ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قليل في زمانه ، أو أنه رأى قائله .

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثرت هذا المحدث وحسن حتى لقد

هممت بروايته . ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خصّ به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده في كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا في عصره . وكذلك قال في مقدمة عيون الأخبار : « وكذلك مذهبا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدثين . إذا كان متخيّر اللفظ ، لطيف المعنى ، لم يُزِرْ به عندنا تأخر قائله ، كما أنه إذا كان بخلاف ذلك لم يرفع تقدمه ؛ فكل قديم حديث في عصره ؛ ومن شأن عوام الناس رقع العدم ، ووضع الوجود ، ورفض المبذول ، وحب المنوع ، وتعظيم المتقدم ، وغفران زلته ، وبخس التأخر والتجّى عليه ، والعاقل منهم بنظر بعين العدل لابعين الرضا ، ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم » .

وأبلغ من ذلك كله — : في الدلالة على تحرر عقله ، وانطلاقه من إسار التقليد والتزمت — : روايته لأدب المجون ، ودفاعه عن ذلك ، حيث يقول : « وسينتهي بك كتابنا هذا إلى باب المزاح والفكاهة ، وما روى عن الأشراف والأئمة فيهما . فإذا مرّ بك أيها المتزمت حديث تستغفه أو تستحسنه ، أو تعجب منه ، أو تضحك له — : فاعرف المذهب فيه وما أردنا به . واعلم أنك إن كنت مستغنيا بنفسك فإن غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه ، محتاج إليه . وأن الكتاب لم يعمل لك دون غيرك فيها لك على ظاهر محبتك . ولو وقع فيه توقي المتزمتين لذهب شطربها ، وشطر مائه ؛ ولأعرض عنه من أحببنا أن يقبل إليه معك . وإنما مثل هذا الكتاب مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين . وإذا مرّ بك حديث فيه إفصاح بذكر عورة أو فرج أو وصف فاحشة — : فلا يحملك الخشوع أو التواضع

على أن تصعّر خدك ، وتعرض بوجهك ، فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وإلما
المأثم في شتم الأعراض وقول الزور والكذب ، وأكل لحوم الناس
بالغيب ... ولم أترخص لك في إرسال اللسان بالرفث على أن تجعله هجيراً
علي كل حال ، وديدك في كل مقال ، بل الترخص مني فيه عند حكاية
تحكيها ، أو رواية ترويها تنقصها السكامة ، ويذهب بجلاوتها التعريض .
وأحييت أن نجري في القليل من هذا ، على عادة السلف الصالح في إرسال
النفس علي سجيتهما ، والرغبة بها عن لئمة الرياء والتصنع ، ولا تستشعر أن القوم
قارفوا وتنزهت ، وثملوا أديانهم وتورعت » .

وهذا كلام رائق معجب ، ينبغي أن نلقاه بالتقدير والإجلال ، ولا سيما
إذ تمثلنا أنه قيل في القرن الثالث ، وأن قائله رجل من رجال الدين يؤلف
في التفسير والحديث ، وينصب نفسه للدفاع عنهما ضد نزعات الشك الفلسفي
التي نجمت نواجمها في ذلك العصر .

* * *

تأويل مشكل القرآن

وكان كتاب « تأويل مشكل القرآن » ثمرة طيبة من ثمار ذلك الدفاع
القويم الذي أبلى فيه ابن قتيبة بلاء حسناً . فقد هاله ما رأى من محنة
الشكوك التي تثار حول القرآن ، والمطاعن التي تسدّد نحوه ؛ وخشى أن
تكون عاقبة أمرها خسراً للأغفار والأحداث ؛ فانتدب نفسه لإدراكها ، وتبيين
- عوجها ، وردّ كيدها إلى نحور أمحايها . وقد أعانه على ذلك امتلاكه لزام

البيان المشرق الرصين ، واقتداره على النقد العلمى المتين ؛ وشمول معارفه وزكاء مداركه ؛ وسعة عقله الذى تمثل أديين ، وتنقف ثقافتين ؛ هما العربية ، والفارسية .

يحدثنا ابن قتيبة - عما بعثه إلى تأليف هذا الكتاب ، وما صنعه فيه - فيقول ص ١٧ : « وقد اعترض كتاب الله بالطعن ملحدون ، ولغوا فيه وحجروا ، واتبعوا ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وابتغاء تأويله » ؛ بأفهام كليلية ، وأبصار عليية ، ونظار مدخول ؛ فحرفوا الكلام عن مواضعه ، وعدلوه عن سبله ؛ ثم قصّوا عليه بالتناقض ، والاستحالة فى اللحن ، وفساد النظم ، والاختلاف . وأدّوا فى ذلك بملل ربما أمالت الضعيف العُمر ؛ والحديث الغرّ ؛ واعترضت بالشبه فى القلوب ، وقدحت بالشكوك فى الصدور فأحببت أن أنضح عن كتاب الله ، وأرمى من ورائه بالحجج النيرة ، والبراهين البينة ، وأكشف للناس ما يابسون ، فألفت هذا الكتاب جامعاً لتأويل مشكل القرآن ؛ مستنبطاً ذلك من التفسير بزيادة فى الشرح والإيضاح ، وحاملاً ما أعلم فيه مقالا لإمام مطلع على لغات العرب ؛ لأرى المعاند موضع المجاز ، وطريق الإمكان ، من غير أن أحكم فيه برأى ، أو أقضى عليه بتأويل ، ولم يجزلى أن أنص بالإسناد إلى من له أصل التفسير ؛ إذ كنت لم أقصر على وحى القوم حتى كشفته ، وعلى إيمانهم حتى أوضحت ، وزدت فى الألفاظ ونقصت ، وقدمت وأخرت ، وضربت لذلك الأمثل والأشكال حتى يستوى فى فهمه السامعون . »

وقد عرض لما صنع مرة أخرى - بعد أن شرح معنى التشابه والمشكل -
إذ يقول في ص ٧٤: « وأصل التشابه أن يشبه اللفظ اللفظ في الظاهر والمعنيان
مختلفان . . ومنه يقال : اشتبه على الأمر ؛ إذا أشبه غيره فلم تكد تفرق
بينهما . وشبهت على . إذ لبست الحق بالباطل . ثم يقال لكل ما غمض
ودق : متشابه ، وإن لم تقع الحيرة فيه من جهة الشبه بغيره .

ومثل التشابه : المشكل ؛ وسمى مشكلا لأنه أشكل ، أى دخل في شكل
غيره ، فأشبهه وشاكله . ثم يقال لما غمض — وإن لم يكن غموضه من هذه
الجهة — : مشكل . وقد بينت ما غمض من معناه لالتباسه بغيره ، واستتار
المعاني المختلفة تحت لفظه ؛ ونفسير المشكل الذى ادعى على القرآن فساد
النظم فيه . »

وقد ذكر ابن فتيبة في مقدمته : أن فضل القرآن لا يعرفه إلا « من كثر
نظره ، واتسع علمه ؛ وفهم مذاهب العرب ، وافقتانها في الأساليب ؛ وما
خص الله به افتقارها دون جميع اللغات ، فإنه ليس في جميع الأمم ، أمة أوتيت —
من العارضة والبيان ، واتساع المجال — ما أوتيته العرب .. » ، ثم ذكر
حال العرب في مباني ألفاظها وإعرابها ، وألوان فروقها بين معاني الأنفاظ ،
وتحدث عما لها من الشعر « الذى أقامه الله لها مقام الكتاب لغيرها ، وجعله
لعلمها مستودعا ، ولآدابها حافظا ، ولأنسابها متيدا ، ولأخبارها ديوانا
لا يرث على الدهر ولا يبيد على مر الزمان ... » ، ثم قال في ص ١٥ :
« وللعرب المجازات في الكلام ، ومعناها طرق القول وما خذه فقيها :

الاستمارة والتمثيل ، والقلب ، والتقديم والتأخير ، والحذف والتكرار ،
والإخفاء والإظهار ، والتعريض والإفصاح ، والسكناية والإيضاح ، ومخاطبة
الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب
الاثنتين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم ، ولفظ العموم
لمعنى الخصوص .

وبكل هذه المذاهب نزل القرآن . ولذلك لا يقدر أحد من التراجم ،
على أن ينقله إلى شيء من الألسنة ، كما نقل الإنجيل عن السريانية إلى الحبشية
والرومية ، وترجت التوراة والزبور وسائر كتب الله تعالى بالعربية ، لأن
العجم لم تنسج في الحجاز أساع العرب . ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل قوله
تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تَخَافْنَ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ ،
لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذى أودعته ، حتى تبسط
مجموعها ، وتصل مقطوعها ، وتظهر مستورها ، فتقول : إن كان بينك وبين
قوم هُدنة وعهد — نخفت منهم خيانة ونقضاً — فأعلمهم أنك قد نقضت
ما شرط لهم ، وآدبهم بالحرب ، لتكون أنت وهم فى العلم بالنقض على استواء
وكذلك قوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾
إن أردت أن تنقله بلفظها لم يفهمه المنقول إليه ، فإن قلت أنما هم سنين عدداً ،
لكنك مترجماً للمعنى دون اللفظ . وكذلك قوله : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ ، إن ترجمته بمثل لفظه
استغلق . وإن قلت : لم يتغافلوا ، أدبت المعنى بلفظ آخر .

وأعتقد أن كلام ابن قتيبة في مسألة ترجمة القرآن هو القول الفصل الذي يجب التمسك به ؛ وعدم العدول عنه .

* * *

بدأ ابن قتيبة كتابه بالحكاية عن الطاعنين ؛ فسررد مطاعنهم في اختلاف أنواعها ؛ ثم عقد أبواباً للرد عليهم في وجوه القراءات ؛ وما ادعوه على القرآن من اللحن ؛ وما نخلوه من التناقض والاختلاف بين آيه ، وما قالوه في التشابه . كما أجاب عن قرلمهم : ماذا أراد بإزالة التشابه في القرآن ، من أراد لعباده الهدى والبيان . . .

ثم ذكر بعد ذلك أبواب المجاز ؛ لأن أكثر غايط المتأولين كان من جهته ، وبسببه تشعبت الطرق ، واختافت النحل .

وطريقته في إيراد أبواب المجاز أنه يذكر ما أتى منها في كتاب الله ، يعقبه بأمثاله : من الشعر وأغات العرب ، وما استعمله الناس في كلامهم .

وقد بدأ بباب الاستعارة ، ثم باب المقلوب ، وباب الحذف والاختصار ، وباب تكرار الكلام والزيادة فيه ، وباب الكناية والتعريض ، وباب مخالفة ظاهر اللفظ معناه .

ثم ذكر باب الأبواب في الكتاب ، وهو باب تأويل الحروف التي ادعى على القرآن بها الاستحالة وفساد النظم ، فتحدث عن الحروف المقطعة ، واختلاف المفسرين فيها . ثم خلاص من الكلام عابها إلى الكلام على مشكل سور القرآن ؛

فيذكر ما في السورة منه ثم يؤوله ؛ ولكنه لم يرتب السور على حسب ترتيبها المعروف في المصحف ؛ بل ذكرها حسبما عَنَّ له من مشاكلها . وقد لا يستوفى الكلام على مشاكل السورة التي يذكرها ؛ فيعيد ذكرها مرة أو مرات ؛ مثلما فعل في سورة البقرة والأنعام ، وسورة النحل والنساء .

فقد تحدّث عن مشكل السورتين الأوليين في أربعة مواضع ، وتحدّث عن مشكل الثابنتين في ثلاثة — كما أنه لم يعرض لكل سور القرآن . والسورة الوحيدة التي استوفى تأويلها ، وشرحها كلها — من بين السور التي ذكرها — هي سورة الجن ؛ لما فيها من إشكال وغموض ؛ بما وقع فيها من تكرار « إن » واختلاف القراء في نصبها وكسرها ؛ واشتباه ما فيها من قول الله وقول الجن .

وبعد أن فرغ ابن قتيبة من تأويله لمشكل السور التي ذكرها ، عقد باباً عظيماً القدر ، بالغ الأهمية ؛ وهو « باب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة » ؛ تحدّث فيه عن نيف وأربعين لفظاً من الألفاظ التي جاءت في القرآن متحدة بالمباني ، مختلفة المعاني ؛ كالقضاء والبلاء ، والأمة والرؤية والإمام والإسلام ، والفتنة والسلطان ، والضلال والنسيان ، والحساب والكتاب .

ثم ذكر ابن قتيبة بعد ذلك « باب تفسير حروف المعاني » ، وما شاكلها من الأفعال التي لا تتصرف ؛ كآين ، وأنى ، ولولا ، ولوما ، ولا جرم ، وتعالى ، وهلم ، ورويداً ، ولدن .

(م ٦ - مقدمة مشكل القرآن)

ثم ختم كتابه بباب « دخول بعض حروف الصفات مكان بعض » وما هو جدير بالملاحظة : أن عنوان هذا الباب والذي قبله ، مظهر من مظاهر مزج ابن قتيبة بين كلام الكوفيين والبصريين ، فحروف المعاني تعبير بصرى ؛ ذكر المفضل بن سلمة الكوفي في كتاب « البارع » الحروف التي جاءت لمعان — بعد أن ذكر أبنية الكلام — فقال : « والحد الثالث من الكلام الأحداث ؛ وهي التي يسميها أهل البصرة : حروف المعاني » .

وحروف الصفات تعبير كوفي ؛ قال السيوطي في همع الهوامع ١٩/٢ « حروف الجر ، ويسميها الكوفيون حروف الإضافة ؛ لأنها تخفيف الفعل إلى الاسم ، أى توصله إليه ، وحروف الصفات لأنها تحدث صفة في الاسم ، فتقولك : جلست في الدار ، دلت « في » على أن الدار وعاء للجلوس ، وقيل لأنها تقع صفات لما قبلها من النكرات » .

* * *

ولأبواب المجاز التي ذكرها ابن قتيبة في هذا الكتاب ، قيمة تاريخية كبيرة ؛ لأنها ستضيف إلى معارفنا عن تطور البلاغة شيئاً جديداً . فالشائع الزائع بين الخاصة وغيرهم : أن البلاغة العربية طفرت من نثار الجاحظ المبثوث في كتبه ، إلى « بدیع » ابن المعتز ، طمرة واحدة . ولم يعرف أحد أن ابن قتيبة قد أسهم في تكوینها وتطورها بنصيب موفور . فظهرت تلك الأبواب في هذا الكتاب بظهورنا على تلك الحلقة المفقودة في تاريخ البلاغة ، ويضيف إلى أبحاث ابن قتيبة مجداً آخر عظيم الشأن ، سيذكره الذاكرون كلما تحدثوا عن تاريخ البلاغة ونشأتها .

ولن يستطيع باحث أن يفعل صنع ابن قتيبة في استخراج ما في القرآن من أنواع المجاز وتبويبها أبواباً مفصلة بلغت عدة صفحاتها أربعاً وخمسين ومائة؛ قبل أن يؤلف ابن المعتز كتاب « البديع » في سنة أربع وسبعين ومائتين؛ بسنوات وسنوات .

* * *

ولباب اللفظ الواحد للمعاني المختلفة ، كذلك قيمة تاريخية عظيمة ، فقد رجع ابن قتيبة المعاني المختلفة للفظ الواحد ، إلى أصل واحد نشأت منه ، وتفرعت عنه .

ومن أمثلة ذلك أنه ذكر كلمة « القضاء » ، وبين معانيها المختلفة التي تصير إليها ؛ ثم ختم بحثه بقوله ص ٣٤٣ « وهذه كلها فروع ترجع إلى أصل واحد » . وكذلك قال بعد تبينه لمعاني « القنوت » ص ٣٥٠ « ولا أرى أصل هذا الحرف إلا الطاعة ؛ لأن جميع هذه الخلل من الصلاة والقيام فيها ، والدعاء وغير ذلك يكون عنها » ؛ وقال بعد ذكره لمعاني كلمة « الأمر » ص ٣٩٤ « وهذا كله وإن اختلف فأصله واحد » .

وبذلك يكون لابن قتيبة فضل السبق إلى القول برد مفردات المادة اللغوية ، إلى أصولها المعنوية المشتركة ؛ لأنه أسبق من ابن جني المتوفى سنة ٣٩٢ ، ومن أستاذه أبي علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ ، ومن ابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ . بل إنني أذهب إلى أن فكرة ابن قتيبة هذه ، هي التي أوحى إلى ابن فارس تأليف كتابه « مقاييس اللغة » ؛ كما أوحى إليه تلك

المباحث اللغوية — التي تضمنها تأويل مشكل القرآن — تأليف كتاب « النصاحي » في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها : والذي يقارن بين الكتابين ، يجد أن ابن فارس قد اعتمد على تأويل مشكل القرآن كل الاعتماد ، وانتفع بمباحثه انتفاعاً عظيماً . ونقل منها إلى كتابه نقولا كثيرة : من غير أن يشير إلى ذلك ؛ وإن أشار — وقليلاً ما يصنع — فإنما يشير إشارة مبهمّة غامضة ؛ كقوله في ص ١٢ : « وقال بعض علمائنا » ؛ وقوله في ص ١٢٤ : « وقال بعضهم » . وقد أشرت إلى بعض ما نقله في مواضعه من الكتاب .

وابن فارس حريص على أن لا يذكر اسم ابن قتيبة ، إلا إذا حاول نقده . وهو في نقده له مفروض متحامل متعجل ؛ وقد دفعته العجلة إلى الخطأ ، وعدم التمييز بين كلام ابن قتيبة ، وبين قوله عن الفراء في « لا جرم » ؛ فنسب قول الفراء إلى ابن قتيبة وخطأه فيه كما أشرت إلى ذلك في تعليق على صفحة ٤١٨ .

وقد عمد أبو عبد الله : محمد بن أحمد بن مطرّف الكنانى القرطبي (٣٨٧ — ٣٥٤) ، إلى كتابي : تأويل مشكل القرآن ، وتفسير غريب القرآن . فجمع بينهما — كما يقول — في كتاب أسماه « القرطين » وهذا العمل ليس — من العلم ، ولا من التأليف — في شيء ؛ ولا يدل إلا على سوء .

التفكير والتدبير. بل هو مستخ للكتابين، وتقطيع لأوصالهما ، وبعمرة لمضمونها
بعمرة تُضِلُّ الأفهام والأفكار ، ولا تسيغها الأذواق ولا العقول .

ولقد زعم ابن مطرف في مقدمته أنه لم يحل الكلام في كلا الكتابين
عن جهته، ولا غير من لفظه ، ولا زاد فيه ، ولا نقص منه . ولكن فعله خالف
قوله ؛ فقد نقص منهما كثيراً وزاد فيهما قليلاً ؛ واتبع فيما حذف هوامه الذي
أضله عن سنن العلماء ، وليس أدل على ذلك من أنه حذف من تأويل مشكل
القرآن صفحة ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ؛ وعال حذفه لهذه الصفحات ، بقوله ١٥/٢ :
« وباقى الباب لم أكتبه ؛ لما فيه من الطعن على حمزة ؛ وكان أورع أهل
زمانه ، مع خلو باقى الباب من الفائدة ! » وسيعلم كل قارئ لهذه الصفحات
ما تضمنته من الفوائد العلمية والتاريخية الجليلة ، وسيحكم بأن ابن مطرف كان
ينطق عن الهوى في حكمه .



وقد اعتمدت في نشر هذا الكتاب على ثلاث نسخ ، الأولى : نسخة
دار الكتب المصرية (١٨٠٥ تفسير) وهى بخط أبى طالب بن عبد الواحد بن
عبد المحسن بن أبى الوفاء الأنصارى الدمشقى ، المعروف ببرهان الدين ، وقد
كتبها فى سنة ٨٠٤ هـ ، وقد قرئت على أبى منصور الجوالقى وعدد أوراقها
١٣٤ ورقة ، وتنقص من أولها ورقة ، ومقاسها ١٥ × ١١ سم وتشتمل الصفحة
منها على خمسة عشر سطراً ، وعلى هامشها بعض تعليقات ، وهى مضبوطة
بالحركات ورمزها « ج » .

والنسخة الثانية : نسخة مكتبة مراد ملاً ، كتبت سنة ٥٣٢ هـ وهى فى ١١٧ ورقة ، ومقاسها ١٩ × ٢٥ سم وعدد سطور صفحاتها ٢٠ سطراً .

والنسخة الثالثة : نسخة دار الكتب المصرية (٦٦٣ تفسير) وهى مكتوبة فى سنة ٣٧٩ هـ بخط محمد بن أحمد بن يحيى ، وعدد أوراقها ٨٥ ورقة ومقاسها ٢١ × ١٥ سم وعدد سطور الصفحة ٢٦ سطراً . واثن كانت هذه النسخة أقدم النسخ عهداً ، فإنها أقلهن وزناً ؛ لأن كاتبها كان يحتوى الشعر فكان إذا مر بشعر حذفه ، ولم يفلت منه إلا قليل : وهى كذلك تنقص كثيراً من النصوص . ولكثرة المحذوف منها ، واستحالة الإشارة إلى أوله وآخره فى هوامش الصفحات دون التطويل الممل — رأيت إثبات الفروق بين النسخ فى آخر الكتاب . ولعل ذلك مما يريح جمهرة القراء .

* * *

ولقد حرصت فى شرحى لهذا الكتاب على تخرج أبياته ، وربط موضوعاته بأما كتبها من كتب الأدب والتفسير ، ونقلات — من الآراء — مادعت إليه ضرورة البحث ، وأومأت إلى ما لم أنقل . وكان قصدى فى ذلك إما تعضيد رأى ، أو توهين قول ، أو تفصيل مجمل ، أو توضيح مبهم ، أو الإشارة إلى مصدر فكرة ، أو انفاق خاطر . ليسكون الدارس للكتاب على بيئة مما ذكره ابن قتيبة من مشكل القرآن ، محيطاً بفقته المسائل التى عرض لها ، جامعاً لأطراف الآراء ووجوه المذاهب فيها .

وما أريد أن أعرض لما صنعت بتزكية أو توثيق ، تأدباً بأدب السلف الصالح ، ونأسيماً بقول أبي سليمان الخطّابي في ختام مقدمته لتفسير غريب الحديث: « فأما سائر ما تكلمنا عليه فإننا أحقاء بأن لا نزكية ، وأن لا نؤكد الثقة به؛ وكل من عثر منه على حرف أو معنى يجب تغييره ، فنحن نناشده الله في إصلاحه ، وأداء حق النصيحة فيه . فإن الإنسان ضعيف لا يسلم من الخطأ، إلا أن يعصمه الله بتوفيقه ، ونحن نسأل الله ذلك ، ونرغب إليه في دركه إنه جواد وهوب . »

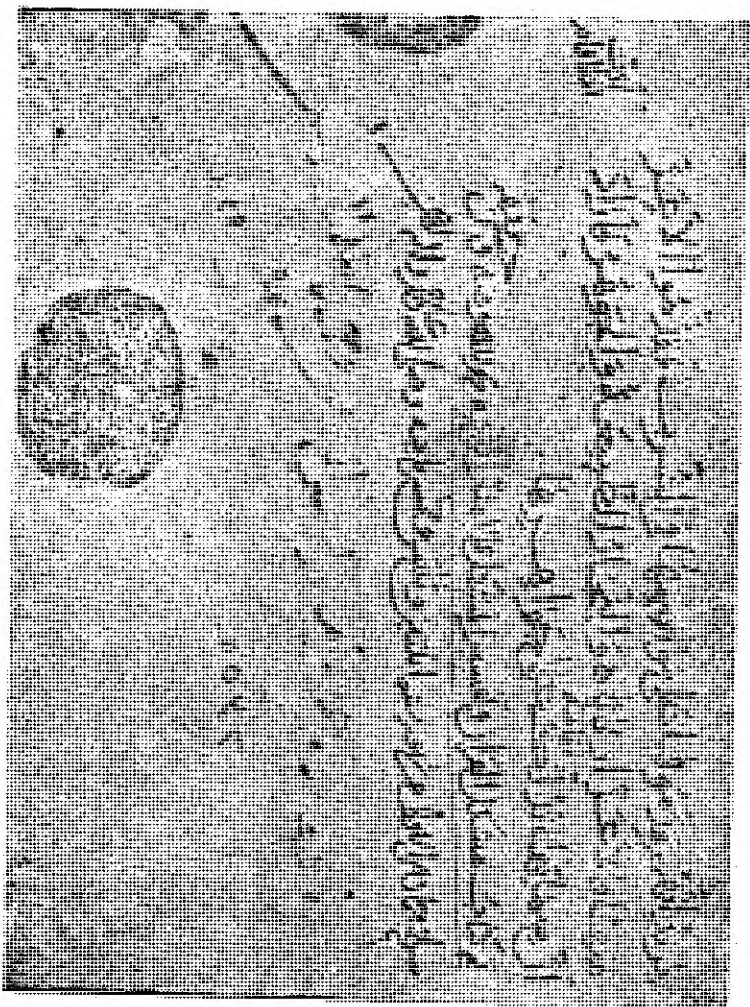
واقْتداء بقول ابن قتيبة : « وما أبرأ إليك بعد من العثرة والزلة ، وما أستغنى منك - إن وقفت على شيء - : عن التنبية والدلالة ، ولا أستنكف من الرجوع إلى الصواب عن الغلط . فإن هذا الفن لطيف خفي ، وابن آدم إلى العجز والضعف والمجالة ، (وفوق كل ذي علم عليم) . »

ونحن نسأل الله أن ينفعنا وإياك بالعلم ، ويعرفنا قدره ، ويجعل شغلنا بالعمل المقرب منه ، ويؤتينا بفضلَه أفضل ما آتاه من أمله بخير نية ، وأرشد هُدى إنه الواسع الكريم . »

القاهرة في يوم الإثنين : ١٧ من رمضان ١٣٩٣ هـ
١٣ أكتوبر ١٩٧٣ م السيد أحمد صقر



صورة الصفحة الأولى من النسخة المرموز إليها بحرف د د ،



صورة الصفحة الأخيرة من النسخة المرموز إليها بحرف «م»

